سامى فريد

يحيى حقى الذى أعرفه

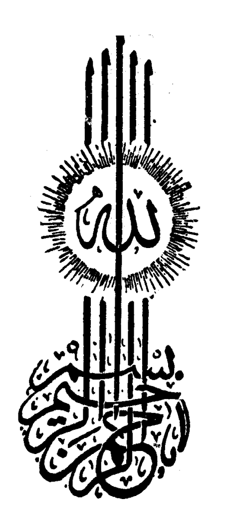
أنا.. يحيى!!

صورة الفنان من قريب



الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠٠٢

تصميــم الغلاف
والإشراف الفنى: صبرى عبدالواحد





الإهداء

إلى كل الذين أسعدهم زمانهم أن يعرفوا يحيى حقى وأحبوه..

وإلى كل الذين لم ينالوا مثلنا هذه السعادة أقدم لهم خلاصة من خلاصة ثلاثين عاما مع الإنسان يحيى حقى حتى لا تفوتهم فرصة التعرف على إنسان نادر وفنان مختلف كان اسمه وسيظل.. يحيى حقى

المؤلف

قبل البداية

يقول يحيى حقى فى كتابه «وصية صاحب القنديل» الذى كتبه عنه الصديق صلاح معاطى وكتب له المقدمة الناقد الكبير المرحوم الأستاذ فؤاد دواره فى فصل عن صديقه سامى فريد:

هذه الصداقة فيها مشاكل- هكذا يحكى يحيى حقى لـ «صلاح معاطى» عن صداقتنا- هذه الصداقة فيها مشاكل.. الاستاذ سامى فريد عندما كنت أعمل فى مجله المجلة وجدته يعمل معى.. شاب صغير وقع فى مشكلة.. أحبنى ولكن أحبنى كأب أم كصديق؟

..كلما شعر نحوى بأبوة أجره بالأبوة الى جانب الصداقة، وكلما أراد أن يعاملنى كصديق يقول: لأ اختشى ..دا زى أبوك، فجعل بينى وبينه حاجزاً وهميا .. أقول له: يا أخى افرضنى أبوك مرة وصديقك مرة مش مهم ..لكن الصداقة تتعرض أحيانا لمشاكل لكى ندرسها.. هل يمكن أن تكون الصداقة بين رجل وامرأة؟ أنا أقول ممكن.. هل يمكن أن تقوم صداقة بين شيخ وطفل وصبى.. فى حالة سامى فريد أشهد لكم أن الصداقة قد تقوم بين رجل عنده ٦٠ أو ٦٥ سنة وبين شاب عنده ٢٥ سنه .

الذى حببنى فى سامى فريد أنه مستقيم الأخلاق طاهر النفس.. واضح وضوح الشمس.. ويكتب القصة وله كتب مطبوعة .. يعنى أديب مطبوع زى ما بيقولوا فجأة اتصل بالأهرام فوجد أن حكاية توضيب الصفحات فن أيضا.. فدخل هذا الباب وأصبح الآن رئيس القسم...يعنى وأنت ماسك «الأهرام» اعرف أن هذا الترتيب الذى بالجريدة بفضل الأستاذ سامى فريد.. فأنا الحقيقة سايبه -هكذا يقول يحيى حقى- وبقول له: يعنى لما تحس أنك صديقى وتحب تفوت على الباب وتسلم مافيش مانع .. لكنه تاعبنى من هذه الناحية.

انتهى كلام يحيى حقى عنى.. هكذا إذن رآنى يحيى حقى: ابنا من أبنائه يخشى أن يضع نفسه فى منزلة الصديق من أب وشيخ وأستاذ ومعلم فى حجم ووزن يحيى حقى.. الوزير المفوض والسفير والأديب الكبير.

لكن السؤال هو: كيف كنت أرى أنا شيخى وأستاذى يحيى حقى؟ وهو السؤال الذى كان ينبغى أن نطرحه منذ البداية.

شاب فى الثانية والعشرين يدق باب الكتابة .. يتلمس طريقه. . على أولى عتبات القصة القصيرة ويدخل بخطوات خائفة هذا العالم الرحب الوسيع.. عالم الأدب والفن.. وتشاء الظروف السعيدة أن يلتقى بيحيى حقى.. كيف يمكن أن يرى نفسه إلى جوار هذا العملاق؟

لكن الصحيح أن يحيى حقى كما فتح قلبه للدنيا بأسرها واحتضن شباب الكتاب وخاض من أجلهم معارك شتى مع المسئولين ومع نقاد كبار وأساتذة كبار انتصارا وانتصافاً للأدباء الشباب، فتح قلبه أيضا لسامى فريد الذى ظل يرى أنه لاينبغى له أن يقفز المسافة بينه وبين يحيى حقى ليجلس الى جواره فى مقعد الصديق وهو التلميذ الصغير.. فظلت علاقته بأستاذه علاقة مزدوجة فيها من البنوة وفيها من الصداقة.. لكن المؤكد أنهما كانا معا داخل إطار شديد القوة من الحب لهذا الرجل الكبير صاحب القلب الكبير.

وظل سامى فريد ينتظر أن يبدأ أستاذه يحيى حقى الخطوة الأولى.. لأنه لم يكن يجرؤ أن يبادر بالخطوة الأولى من جانبه ..فقد تفسد على الشيخ لحظة راحة أو ساعات تأمل فآثر أن ينتظر إشارة أستاذه دائما لكى تستمر الصداقة بينهما. وصحيح أن يحيى حقى بادر مرات كثيرة لكن الشاب صغير السن لم يكن يتخيل أبداً أبداً أنه يمكن له أن يكون صديقا على نفس المستوى مع يحيى حقى .. وهو الذى يجلس أمامه- وقد رأى هذا بعينيه - نقاد كبار وأدباء مشهورون فى مقاعد التلاميذ يستمعون إلى نصائحه وينتظرون توجيهاته وأرشاداته وهو المعلم.. وهو الأب.. وهو صديق الجميع.

الآن فقط يا أستاذى ويا أبى وياصديقى أعرف وأنا شديد الحزن كم كنت كبير القلب .. كم كنت واسع الصدر.. وكم كنت حكيماً.

وأعرف أيضا وأنا شديد الحزن كم فاتنى من جميل صداقتك التى كنت تبذلها لنا جميعا ولى أنا على وجه الخصوص.. ولن أنس ما حييت كلماتك الأخيرة لى وأنت تودعنى فى مرضك الأخير قبل ذهابك الى المستشفى وعلى باب شقتك فى شارع الشيخ الغزالى من شارع العروبة قائلا: ماخدمتكش يا سامى زى ماخدمت غيرك.. كان نفسى أقدم لك أكثر من كده بكثير.. وكان ردى عليك: يا أستاذ يحيى أنت صنعت حياتى وهذا يكفى.. ماذا كنت تنتظر أن تقدم لى أكثر من هذا؟ لقد قدمت لى روحى.. ثم انحنيت لأقبل يدك فسحبتها منى بسرعة.. وجرت دمعتان كبيرتان على خدى.. وكان داخلى إحساس ثقيل بأننى ربما لن أراك مرة ثانية.

أستاذى.. أحبك كثيراً ومازلت كلما أمسكت القلم أخط سطراً أراك بابتسامتك الجميلة الهادئة وعينيك الوادعتين تنظر فى أوراقى.. تهز لى رأسك مشجعا ..فأرفع إليك عينين شاكرتين وأواصل الكتابة.

أنا يحيى

القاهرة شتاء عام ١٩٦٣ ..في الجو مازالت لسعة من برد خفيف.

في مبنى التليفزيون في الدور الخامس كنت أقف في طابور المصعد ولحته.. كان ينتظر دوره أمام باب المصعد.. كهل في السادسة والخمسين..في العينين مرح طفولي وعلى الشفتين ابتسامة تعانق الحياة.

عرفته .. وكان هو يحيى حقي السفير والوزير المفوض ورئيس مصلحة الفنون.. وفوق هذا كله الكاتب الكبير.. هو نعم.. قلت لنفسي.. ويا للمصادفة.

نظر إلى بعينين مرحبتين وشعرت أنني أعرفه وأنني أيضا أحبه.. وابتسم.. فتراجعت للخلف وآثرت النزول على السلم منطلقا .. تحتضنني شوارع القاهرة الواسعة الغاصة بالناس ذات صباح من شهر سبتمبر من خريف عام ١٩٦٣.

ومرت شهور على اللقاء الأول في مبنى التليفزيون.

كنتُ قد اجتزت بنجاح اختبارات العمل كمقدم برامج في التليفزيون..وكنت قد أعددت نفسي للانخراط في العمل في ذلك المبنى الجديد المبهر لنا نحن شباب ذلك الجيل.. ولكن كان القدر فيما يبدو يعد لي موعداً آخر في مكان آخر.

وكان اللقاء الثاني في مبنى جريشام بشارع طلعت حرب في هيئة الاستعلامات.. وكنت أيضاً أقف أمام المصعد.. وجاءني صوت زميل لي من الطابور المجاور يسألني ماذا فعلت في عملي الجديد بهيئة الاستعلامات؟ وكنت قد عينت في إدارة المجلات التي انتقلت تبعيتها في ذلك العام- لحظي- إلى هيئة الاستعلامات من وزارة الثقافة .

سألني :رحت المجلات؟ قلت: لأ.. لسه! وفجأة خرج من الطابور أمامي شخص التفت ألي وفي عينيه غيظ شديد وكأنه يعرفني. قال محتدا: هو إنت بقى سامي فريد؟

قلت مندهشا: أيوه.. ليه؟

قال مواصلا غيظه مني: حرام عليك.. دا إنت محيرني بقالك شهر.. امشى قدامى! قلت وسط ضحكات الواقفين: فى إيه؟ قال: قدامى! ونزلنا إلى شارع طلعت حرب وعرجنا منه إلى شارع عبد الخالق ثروت. وفى عبد الخالق ثروت كان موعدى الذى رتبه لى القدر مع يحيى حقى.

فى الدور الرابع من العمارة التى تقع على ناصية شارعى شريف وعبد الخالق ثروت ذهبت مع الاستاذ عثمان.. هكذا كان اسمه.. وهو المندوب الذى كان مكلفا بتسليمى عملى فى إدارة المجلات.. ذهبنا لنلتقى بالدكتور محمد أحمد خلف الله وكان مديرا للمجلات فى ذلك الوقت.

قال له الاستاذ عثمان: يا دكتور استلم.. الأستاذ اسمه سامى فريد.. اتعين عندكم من الشهر اللى فات.

قال الدكتور خلف الله: أهلا وسهلا.. بس ده أعمل بيه إيه يا عثمان؟

قال: معر فش.. استلمه وخلاص!

وقال الدكتور خلف الله مستسلما: اتفضل اقعد.

وجلست.. كان المكان هو مقر مجلة الثقافة التى كان يرأس تحريرها المرحوم الأستاذ محمد فريد أبو حديد.. وكانت المجموعة التى جلست بينها تضم فيما أتذكر الأساتذة فؤاد نور ومصطفى فودة مصطفى ومحمد العوانى.

وسأل الدكتور خلف الله الاستاذ مصطفى فودة بعد فترة.. تفتكر يا أستاذ مصطفى نعمل إيه فى الأستاذ سامى فريد.. ينفع عندنا؟

هكذا كان الكلام أمامى دون مواربة.

رد الاستاذ مصطفى فودة: والله يا دكتور أنا أعتقد أنه ينفع أكثر مع الأستاذ يحيى حقى.. مش الورق اللى مع حضرتك بيقول إنه خريج إنجليزى.. أهه الأستاذ يحيى حقى عنده فى المجلة ترجمة.

قال الدكتور خلف الله مؤمنا: صح يا مصطفى.. اطلب لى رأفت.

وأسرع الأستاذ مصطفى فودة إلى التليفون يطلب الأستاذ رأفت فصيح الذى كان يعمل مديرا ماليا بإدارة المجلات.. وكان مكتبه فى الدور الرابع فى الشقة التى كانت تشغلها فى ذلك الوقت مجلات المجلة والشعر والقصة.

وصعد إلينا الأستاذ رأفت فصيح وقال موجها كلامه للدكتور خلف الله: اؤمرنى يا دكتور.

قال الدكتور خلف الله مشيرا إلى: اتفضل يا سيدى استلم! قال رأفت مندهشا: استلم إيه يا دكتور!.

قال.. استلم الأستاذ.. نزله للأستاذ يحيى حقى.. اتعين عندنا جديد! وقول له: الدكتور خلف الله باعت لك ده هدية.

وضحك الدكتور خلف الله.. فقمت وسرت مع الأستاذ رأفت فصيح الى مستقبلى الجديد.. الذى بدأت تلوح ملامحه للشاب الصغير الذى سمع اسم يحيى حقى فداخلته رهبة شديدة.

هكذا رأيت لأول مرة مكتب الأستاذ يحيى حقى.

وهنا التقيت بكتيبة يحيى حقى الصغيرة.. وكانت تتألف من المرحوم الاستاذ أنور المعداوى والأستاذ فؤاد دوارة والأستاذ يوسف الشارونى.. وفيها أيضا التقيت بالأستاذ حسن الفقى والأستاذ محمد العوانى ثم انضم إلينا الأستاذ كمال ممدوح حمدى وكان يقضى فترة تجنيده فى الجيش.

أشار لى الأستاذ رأفت فصيح لأنتظر حتى يستأذن لى.

الباب مفتوح.. الأستاذ يحيى حقى يجلس فوق مقعد فوتيل من الخشب مطلى باللون البنى وكان تنجيده من الجلد الاسود.. أمامه منضدة منخفضة يضع عليها حافظة أوراق زرقاء لاحظت أنها قديمة وفوقها البيريه ثم عصاته.

فيما يشبه الاجتماع العائلى كان يحيى حقى يستمع إلى مقال يقرأه عليه صاحبه منصتا بغاية الاهتمام والتركيز.

تقدم رأفت فصيح خطوة وقال: يا يحيى بيه أنا آسف.. الأستاذ.. والتفت نحوى وكأنه ينتظر منى ذكر الاسم فقلت: سامى فريد. قال: سامى فريد.. اتعين النهاردة عندنا..الدكتور خلف الله بيقول لحضرتك ده ليسانس انجليزى خده عندك وشوف حاتشغله إيه!

التفت نحوى الأستاذ يحيى حقى وربت فوق مقعد خشبى إلى جواره وقال لى: اجلس! فتقدمت وجلست صامتا وكأننى دخلت محراب يحيى حقى أو انضممت إلى هذه الأسرة الصغيرة منذ تلك اللحظة البعيدة ذات صباح من شهر ديسمبر عام ١٩٦٣.

بعد قليل انتهى صاحب المقال من قراءة مقاله.. ولم ينقطع توافد زوار المجلة التى كان الأستاذ يحيى حقى يرأس تحريرها فى ذلك الوقت عن الحضور.. وفى لحظات التوقف كان الاستاذ يحيى حقى يميل نحوى مرحبا ببشاشة واضحة: أهلا وسهلا.. تكرر هذا الموقف أكثر من مرة وكنت أرد مرتبكا: أهلا وسهلا.. ثم التفت إلى متأملا وكأنما لم يكن قد رآنى بشكل كامل.

دقق فى نظرته وسألنى بحنان الأب: اسمك إيه؟ فأجبت: سامى فريد..

قال بطريقته المعروفة: حلو قوى معاك إيه بقى يا سامى؟

قلت: ليسانس إنجليزى.. فكان سؤاله المباغت: بتحب اللغة العربية يا سامى؟

قلت كمن يدفع عن نفسه تهمة: آه طبعا! فانطلقت رصاصته الثانية: قريت لى إيه؟ وكانت لحظة ارتباك شديدة أنقذنى منها كذبة كذبتها مضطراً فى تلك اللحظة: قلت: الحقيقة لم اقرأ إلا قنديل أم هاشم.. وكانت علاقتى بقنديل أم هاشم علاقة سماع فقط.. ولحظى فقد كنت سمعتها بالأمس من الراديو وأعجبتنى.. ودار فى خاطرى بينى وبين نفسى أننى سأقرأها يوما قبل أن أعرف أننى سألتقى بيحيى حقى.

ولم يتوقف يحيى حقى عن هجومه.. قال: ولاحظت فيها وحدة التعاطف بينى وبين البطل؟

قلت لنفسى قبل أن أرد: هكذا إذن عالم الأدب.. هذه المصطلحات والرموز.. هذا التنظير.. المسألة إذن ليست سهلة ..وهذا هو العالم السرى أو السحرى الذى أوقعك فيه حظك .

قلت وقد بدأت أتحفز لرد الهجوم: لأ الحقيقة ما أخدتش بالى ! فقال كما يشرح أستاذ لتلميذ جديد ينضم الى الفصل: ما هو الكاتب لازم يكون له موقف وموقفه لازم يبان من خلال بطله.. انت مالاحظتش علاقة الشرق والغرب أنا عالجتها إزاى؟ اسماعيل ده يا ابنى من حارة فى السيدة زينب ..شفت الغرب عمل فيه إيه؟! لكنه ارتد بالإيمان.

ومضى الحوار طاويا تحت أجنحته ذلك النهار حتى قام الاستاذ يحيى حقى واقفاً ولم أكن أعرف كيف يكون نظام العمل فى تلك المجلة.

تناول الأستاذ يحيى حقى عصاته والبيريه واحتضن حافظة أوراقه وكأنه لم يشأ أن يتركنى فى المجلة فى ذلك اليوم ..أول أيام عملى وسألنى: مش نازل يا سامى؟ قلت: اللى تشوفه حضرتك.

مال يحيى حقى على الغرفة المجاورة لمكتبه وقال ببشاشته التى بدأت اتعرف عليها: مش عايزين حاجة؟ سلام عليكم.. وامسك بذراعى وسرنا نجتاز الردهة الطويلة فى ذلك المبنى الكائن فى ٢٧ عبد الخالق ثروت من ناصية شريف، حيث إدارة مجلة المجلة.

أسرعت استدعى المصعد .. لوح بعصاته مودعا قبل أن يغيب المصعد.. شيعته بنظرى ثم عدت الى رأفت فصيح أسأله عن الغد. قال: تعال يعنى لحد تسعة.. كويس؟

ثم سالنى: إنت ساكن فين؟ قلت فى امبابة. قال: يعنى تسعة.. تستعة ونصف.. فودعته ثم انصرفت.

بعد عامين .. كنا- الأستاذ يحيى حقى وأنا- نقطع الطريق معافى شارع عبد الخالق ثروت...

سألنى أين أقيم؟ قلت: فى مصر الجديدة.. ثم أضفت موضحاً: آخر المريلاند. قال: حلو قوى قوى. ثم سألنى بعد فترة: متجوز يا سامى؟ وكنت قد انتقلت إلى مصر الجديدة بعد الزواج. أجبت: الحمد لله. قال: يبقى نروح مع بعض بقى.

وفى الطريق توقفنا كثيرا.. هذا الرجل- قلت لنفسى- يبدو أن مصر كلها تعرفه.. بل

أكثر من ذلك تصادفه من طول ماتوقفنا ليسَلّم ويسَلّم عليه ويتكلم ويكلّم.. كان حديثه مع الناس الذين التقينابهم حديث الود والصداقة والحب.. يبتسم فى وجوه الجميع.. يسألهم فى حرارة وحميمية عن الأسرة والأبناء والصحة والحال والمزاج.. ومعه يفتحون قلوبهم يفضون إليه بمكنون صدورهم.. بهمومهم.. بكل ما يشغلهم فى أعمالهم.. فى حياتهم.. يحكون أمامه أحلامهم وآمالهم وآلامهم وهو يستمع مبتسما.. منفعلا.. متعاطفا..ناصحا..مهوناً..مخففا.

فى الطريق من شارع عبد الخالق ثروت إلى نهاية خط المترو فى ماسبيرو تعرفت لأول مرة على الكاتب الساخر الراحل الأستاذ محمد عفيفى.. والتقينا بالمرحوم زكريا الحجاوى والدكتور عبد العزيز الأهوانى وبالكاتبة الصحفية المعروفة سناء البيسى.. كل من كنت اقرأ لهم أو أقرأ عنهم وأشاهد صورهم فى المجلات والصحف رأيتهم فى ذلك اليوم أو هكذا خيل إلى.. من أين ظهروا؟ ولماذا لم أكن أراهم قبل اليوم؟ سؤال احترت فى البحث له عن إجابة.

فى البداية كنت أتصور أننا سننزل من المجلة لنستقل سيارته التى تنتظره أمام المبنى.. وخاب أملى!.. ثم تصورت أنه سيطلب منى أن أشير إلى تاكسى ينقلنا إلى مصر الجديدة.. وخاب أملى أيضا! حتى إذا وصلنا إلى محطة المترو أسرعت إلى عربة الدرجة الأولى من أجل أن أحجز له مكانا ليجلس فيه فى الزحام لكنى نظرت خلفى فلم أجده..كان الأستاذ يحيى حقى يعرف طريقه جيداً.

فى عربة الدرجة الثانية وجدته يسبقنى ويجلس بين الناس واحداً منهم.. أسرعت إليه ووقفت إلى جواره حتى إذا وجدت مكاناً للجلوس جلست .

وللمصادفة جلست إلى جواره وأمامه مجموعة من النساء من بنات البلد.. كانت كبراهن تتحدث فى حماس وبصوت مرتفع تحكى عن مشاكلها مع زوجة ابنها وكيف تعاملها وكيف ترد لها الصاع صاعين.. وتحكى موقف ابنها وظروف حياتها ..ويحيى حقى مستغرق تماما فى هذا المشهد الحى الذى يدور أمامه.. وقد أعطاه كل اهتمامه فراح يتتبع بأذنيه وعينيه المحاورة بين الأم وصاحباتها وينقل عينيه بينهن ..حتى تنبهت له السيدة فصاحت فى وجهه:

انت مالك يا راجل انت بتبص لنا كده ليه؟ عايز مننا إيه.. مش عيب عليك تسمع كلامنا وتتصنت علينا؟

ولم ينتبه يحيى حقى لكلامها ولم يتبين حتى أنه موجه إليه.. فنبهته..

قلت له: أستاذ يحيى.. استاذ يحيى !

قال دون أن يلتفت نحوى: فيه حاجة ؟ ملت عليه أهمس فى أذنه: الست بتكلمك.

التفت نحوى: أنا؟ قلت: أيوه! الست غضبانة بتكلمك.. فالتفت إليها ولم يعلق.. وقام من فوره وكنا قد اقتربنا من محطة نزوله في منشية البكري حيث كان يقيم في ذلك العهد..

سألنى مبتسما : ماذا قالت؟

قلت: كانت تعاتبك لكن بشدة قال: يعنى ماذا قالت؟

قلت: قالت مالك بتبص لنا كده يا راجل يا كبير إنت؟ فأغرق فى الضحك وقال: خدت بالك من الست كانت بتستعمل ايديها إزاى؟.. خدت بالك منها لما بتيجى سيرة مرات ابنها وشها بيبقى شكله إيه؟ ما أخدتش بالك من نبرة صوتها وهى بتتكلم عن نفسها؟ قلت: خدت بالى بس ده أهميته إيه يا أستاذ يحيى؟ قال: إزاى؟ دا مهم جداً يا ابنى ..دا مسرح حي.. لازم تسمع كويس.. لازم تاخد بالك من وشوش الناس.. أنت ما تعرفش تقرأ وشوش الناس؟ قلت: اتعلم.

صعدنا الدرجات القليلة الى الشارع وعبرنا إلى محطة البنزين ووقفنا أمامها ..وأشار الى عمارة تشبه المروحة فوق المحطة .

قال لى: أنا ساكن هنا فى الدور السادس.

ثم أضاف وهو يمد يده مصافحا مودعا: تبقي تيجى لى. قلت: إن شاء الله..حاضر.

قال وهو يستدير مبتعدا: عندك تليفون؟ قلت: لسه! قال: لازم تركب تليفون، قلت: إن شاء الله.. ووقفت أتابعه بعينى حتى مدخل العمارة ..ثم استدرت أواصل طريقى إلى بيتى فى شارع السباق فى آخر حديقة الميريلاند سعيداً بمعرفة هذا الرجل.. وفى داخلى إحساس أننى أريد أن أحكى لكل الدنيا أننى أعرف هذا الرجل!

مشــوار !

فى ترام مصر الجديدة تكررت مشاوير العودة من العمل معاً.. كان الفتى يتمنى ألا تنتهى الرحلة مع هذا الرجل أبداً ..الحديث بينهما يسير فى اتجاه واحد فقط. يستمع الفتى وقد تحول إلى حافظة تسجل، وقد أدرك حجم المسئولية التى تنتظره.. وكان الدرس الجديد واحداً من دروس كثيرة تعلمها الفتى من أستاذه .

قال الشيخ يُحدث تلميذه الجديد: أنت ولاشك قرأت رواية العجوز والبحر لهيمنجواى.. إن صائد السمك عند هيمنجواى هو صورة صادقة محددة لصياد سمك فى جنوب أمريكا.. وزوج الأحذية القديمة عند فان جوخ لامثيل له فى العالم.. والفلاح الذى رسمه الفنان الرومانى جريجورسكو ينطق كل خط فيه أنه فلاح من رومانيا، من أجل هذا وحده بلغت الصورة مرتبة الدلالة العامة، فإذا بلغت هذه الدلالة العامة تخلصت من قيود الزمان والمكان والظرف العارض، بل تخلصت أيضاً من خصائص اللغة، وهى آخر وأصعب قيد ينكسر هنا، حينئذ يتوجه الأدب برسالته إلى جميع الناس، ومن هنا -كما نقول دائماً- يكتسب صفة العالمية انطلاقاً من المحلية..

مع اهتزازات القطار وزحام الركاب وعيونهم المندهشة يواصل الشيخ درسه للتلميذ: هنا يصبح صياد هيمنجواى مجرد صياد سمك حيثما وجد، وزوج الأحذية القديمة فى لوحة فان جوخ تجده فى أى دكان إسكافى على أى بقعة من بقاع الأرض، وذبيحة القصاب فى لوحة رمبرانت تجدها فى دكان أى «جزار» فى أى مكان تحت أى سماء، وفلاح جريجورسكو الرومانى تجد منه المئات- بل الآلاف- فى ريف مصر، وذلك لأن عمل الفنان الحق هو تجريد الشيء من ملابساته العابرة، حتى لاتبقى إلا سريرته وجوهره. لماذا أقول لك كل هذا؟..

يسأل الشيخ تلميذه الذى تتسع عيناه دهشة ورهبة من هذا العالم الجديد الذى يبدأ أولى خطواته فيه..

ويجب. لأن التعبير الأدبي ما هو في نهاية الأمر إلا تحويل الخاص إلى العام.. وأعجب من هذا أنني، مع إيماني بكل هذا الكلام- ولا تندهش- أواظب على نصيحة أصدقائي الذين يقرءون عليّ أوائل قصصهم بعكس ما قلت منذ قليل، وعلى خط مستقيم، فتجدني أقول لهم: القصة يا أبنائي هي في النهاية تحويل العام إلى الخاص..كيف؟.. أنت تريد أن تحدثنا عن إنسان بالذات.. عن طائر بالذات.. عن منضدة مثلا. فينبغي عليك أن تفرزها عن العموم والشيوع، وتحددها لنا تحديداً لا يقبل الإبهام أو الاختلاط بغيره.. هذا المطلب يا ولدي يقتضي منك قُدْرتيْن عسيرتين في وقت واحد:

الأولى: هي قدرة قاموسك على الاتساع، بحيث يشمل جميع الأنواع والفصائل، فتعرف مثلا اسم كل طائر، وكل زهرة، والفروق بينها، وخصائص كل منها.. المسألة يابني كما ترى ليست سهلة.. وليست (جهجهون) كما يتصور البعض، وسأضرب لك مثلاً ألمسه بنفسي فيما أقرأ من القصص. يقول الكاتب مثلا: ورفع بصره فرأى طائراً يحلق فوق رأسه..

هنا أقول له: كان ينبغي عليك أن تقول: فرأى غراباً، أو هدهداً، أو حدأة، أو صقراً.

أو أسمع أحدهم يقول: فقطفت زهرة ورحت أتنسم عبيرها.

وأقول له: هنا كان ينبغي أن تقول: فقطفت ياسمينة، أو فُلة، أو قرنفلة، مثلاً وهكذا.

أو قد تقول في قصة لك- ثم يباغتني بالسؤال قبل أن يكمل- هل قلت لي إنك تكتب القصة؟ وأهز رأسي، فيواصل: قد تقول عن بطل قصتك: ودخل حجرة قديمة الأثاث،فيها منضدة، فأقول لك: أكمل وقل منضدة من خشب أبيض اغْبَرّ طلاؤها، أو انفرجت قوائمها.. وهكذا.. أفندم؟!

أنت مثلاً قد تصف بطل قصتك بأنه شيخ، ثم تتركه وتتركنا وأنت تعلم أن الناس لايشيخون على هيئة واحدة.. فهذا فقد أسنانه، وهذا انحنى ظهره، وثالث كُفّ بصره، فينبغي إذن أن تصف لنا شيخوخة هذا الشيخ بالذات. وكذلك الحال إذا تحدثت عن شاب، فينبغي عليك أن تصف لنا كيف تجلى عليه شبابه هذا.

والثانية: هي التحديد.. لأنه هنا أيضاً ينبغي التحديد مادمت تتحدث عن شيء أو فعل محدد محصور في إطار القصة التي تكتبها.. ومادمت قد أدخلت فيها من بين عناصرها زهرة أو طائراً أو منضدة، فينبغي عليك أن تحددها. وليست هذه التحديدات مطلوبة هنا

لخاطر سواد عيونها، بل لأن بعضها يتركب على بعض، ويصب بعضها في بعض، حينئذ تكتسب قصتك طابع الصدق، أى الإيهام بواقع، فالفن ليس هو الواقع، بل إيهامٌ بواقع، وليس من التناقض بالطبع القول بأن هذا التحديد إذا لزمك مرة وأنت تقتبس من الواقع منضدة موجودة فعلا رأيتها أنت بعينيك، فإنه يلزمك مائة مرة حين تصف منضدة من صُنع خيالك، لأنك هنا أنت الصانع...

ويكمل الشيخ درسه حينما كُنا نتهيأ للنزول في محطة روكسى، حيث مسكنه القديم:

وصِدْقُ العمل الفنى هنا لا يرتبط بزمان أو مكان، لأن ارتباطه بقيود الزمان والمكان يجعل منه ظاهرة تسقط بسقوط أسبابها وملابساتها التى ارتبطت بها، وبراعة الكاتب هنا تتجلى في الوصف والحوار، والسرد والحوار الداخلى، فهذه هى أوراقه التى يختار منها، وهنا تكمن الصنعة، لأنه لا فن بلا صنعة، وهى صنعة مختفية بالطبع، تتعالى عن الصنعة التقليدية، لكن العمل الفنى أو الأدبى له في النهاية صنعته، وهى التى تتجلى فيها براعة الأديب، ويختلف فيها كاتب عن كاتب.

على رصيف المحطة وقف الفتى إلى جوار أستاذه الشيخ.. أشار الأديب الكبير الى قطار المترو الذى بدأ يتحرك قائلا لتلميذه: بسرعة علشان تلحق تروح .

قفز الفتى إلى العربة المفتوحة ملوحاً لأستاذه. لوح له الأستاذ مودعا ثم استدار يصعد درجات السلم إلى الشارع.

الدرس الأول

كان الدرس الأول إذن هو تعلم كيف تقرأ وجوه الناس.. لأن الحياة هى المسرح الحى.

ذهبت الى المجلة وشعور بالسعادة والنشوة والخوف يغمرني.. سأبدأ عملي اليوم وبشكل جدى مع يحيى حقى، وطوال الطريق كنت أسائل نفسى: ترى كيف يكون شكل العمل مع هذا الرجل؟وماهو دورى بالتحديد معه؟ سأنتظر وسأعرف!

أما باب المجلة في الثامنة والنصف صباحا كنت أدق الجرس.. وأدق برفق على الباب المغلق.

هبطت من الدور الرابع وسألت البواب: هو ما فيش حد فوق فى المجلة؟

قال ببساطة: لأ.. مايجوش دلوقت!

سألت: أمال بيجوا إمتى؟

قال: شعبان بيجى حوالى الساعة تسعة.. تسعة ونص.. والأستاذ رأفت بييجى حوالى الساعة عشرة .. عشرة ونص.

قلت لنفسى: أمامى وقت طويل إذن.. سأدور فى الشوارع اتفرج على الفاترينات ثم أعود.

كنت حريصا على أن أكون أول الحاضرين فى أول يوم من أيام العمل.. ظللت أذرع الشوارع اتسكع واتطلع الى ساعتى حتى اقتربت من التاسعة.. كان الوقت يمر بطيئا فعدت الى المجلة وصعدت إلى الدور الرابع ولم يكن أحد قد جاء بعد.. نزلت مرة أخرى.. وعلى مقهى صغيره فى الممر أمام المبنى جلست وعيناى تراقبان مدخل العمارة حتى ألمح أى فرد من العاملين فى المجلة فاصعد معه.

بعد قليل وصل شعبان البرعى ساعى المجلة بدراجته.. ثم صعد إلى الدور الرابع

..فدفعت حسابى فى المقهى وانتظرت قليلا ثم صعدت خلفه. ألقيت عليه التحية فردها بأحسن منها. قال: هو انت بقى الموظف الجديد؟ قلت: نعم. قال: قهوتك إيه؟ قلت: مظبوطة إن شاء الله.. وسألته: أين سأجلس؟ قال: اداخل مكتب الأستاذ رأفت فصيح وهو حيقول لك لما ييجى.. فدخلت وجلست على الكنبة الجلد أنتظر قهوتى ووصول طاقم المجلة.

بعد قليل وصل الأستاذ رأفت فسلم على بحرارة وراح يسألنى بعض الأسئلة المعتادة عنى وعن شهادتى وعن سكنى بقصد التعارف.. وراح يتحدث عن نفسه وعن المجلة وعن الأستاذ يحيى حقى والزملاء العاملين فى المجلة.. ورحنا نمضى ذلك الصباح فى دردشة كان يقطعها رنين التليفون أحيانا ..ثم بعض الأعمال الروتينية العادية التى يؤديها الأستاذ رأفت..حتى فوجئت بمن يطل علينا من الباب يلقى علينا تحية كالفل.

قال الصوت الضاحك البشوش: صباح الفل.. ورد الاستاذ رأفت يا صباح الفل يا أستاذ يحيى، ورددت أنا بصوت خفيض: صباح الخير.. ودخل الأستاذ يحيى حقى إلى مكتبه ونادى: القهوة يا شعبان، وأجاب شعبان عبر الممر الطويل: عينيا يا أستاذ يحيى..

أشار لى رأفت فصيح بعينيه أن ادخل لتبدأ عملك.. ولم أكن أعرف ما هو عملى بالتحديد.

نقرت على فتحة الباب فجاءنى رد الأستاذ يحيى: تعال.. اتفضل.. وأشار إلى مقعد بجواره فجلست صامتا ..وراح الأستاذ يحيى يقلب فى حافظة أوراقه ويخرج منها المقالات والقصص والدراسات والقصائد ويناولها لى قائلا: من دلوقتى ورايح أنت مسئول عن ده.. تقيّد كل حاجة عندك بالملاحظات اللى عليها وتعمل لنا أرشيف.. القصة فين والشعر فين والمقالات فين وإيه اللى صالح للنشر وإيه اللى فى العدد وايه اللى متأجل وإيه اللى مش صالح وإيه اللى يرجع.. فاهم؟

قلت: فاهم! قال: حتعرف تليفونات الناس عشان حتطلبهم ويتصلوا بيك وتتصل بيهم وتتابع العملية دى كلها وتتابع العدد لحد ما يطلع من المطبعة.. مفهوم؟

قلت وقد بدأت أشعر بالمسئولية: مفهوم يا أستاذ يحيى..

قال: حلو قوى قوى.. اتفضل بقى! فقمت ومعى هذه المجموعة من المقالات.. وضعتها على المكتب وقلت للأستاذ رأفت إننى أريد مكاناً للمقالات وأريد دفتراً أسجل فيه عناوينها وأسماء الكتاب وملاحظات الأستاذ يحيى وأسرة التحرير.

وبدأ الأستاذ رأفت يعد لى ماطلبت .. ولم يمض وقت طويل حتى سمعت صوت الأستاذ يحيى ينادينى مرة أخرى فأسرعت إليه.

قال: تعرف تقرأ.

قلت: طبعاً يا أستاذ يحيى.

قال: طيب خد اقرأ لى دى.. وناولنى مقالا كبيراً وجلس فى وضع المنصت ينتظر ما سأقرأه.

وبدأت القراءة..

لم أكن أدرى على وجه التحديد كيف أقرأ.. هل أرفع صوتى؟ هل أقرأ ببطء؟ بسرعة؟ وكنت أخشى أن أقع فى أخطاء التشكيل أمام عملاق مثل يحيى حقى.. أنا الذى كنت أتصور فى نفسى أننى أديب أكتب القصة والشعر وأنتظر دورى فى مدرسة يحيى حقى حتى أولد على يديه ميلاداً رسميا..

قرأت وكل همى ألا أخطىء فى اللغة.. لذا فاتنى فى المقال أن أتابع مضمونه ومعناه.. وكنا بين الحين والآخر نتوقف عندما يطلب الاستاذ يحيى حقى أن أعود إلى فقرة سابقة أو صفحة سابقة أقرأها من جديد.. ثم يناقشنى فيما قرأنا.. يسألنى: فهمت يقصد إيه؟ يقصد كذا وكذا عشان كده كان بيقول فى المقدمة كذا وكيت.. كمل! فأعود إلى حيث انتهيت وأبدأ من جديد.

وانتهى المقال فناولنى قصة ثم قصيدة ثم مقالا.

لم أكن أعرف كيف أتعامل مع هذا الرجل عندما أريد أن أستأذن لشرب فنجان قهوة أو كوب شاى أو أتناول طعام الغداء مثلا.. وقررت بينى وبين نفسى أن أسأل رأفت فصيح عن التصرف فى مثل هذه الحال لأننى بلا دراية فى مقتضيات وواجبات العمل ..خصوصا مع شخصية مثل يحيى حقى.. لذلك آثرت السكوت حتى ينتهى اليوم فلا أغادر مكانى حتى يأذن لى الأستاذ يحيى.

خلال ذلك النهار كان الأستاذ يحيى حقى يستقبل زواره من الأدباء والكتاب والشعراء.. وكان لفرط احترامه للناس يستقبلهم واقفا مصافحا بكلتى يديه.. ضاحكا مستبشرا مهتما بأدق التفاصيل.. وكان يصاحبهم عند خروجهم حتى الباب الخارجى أحيانا.. أو حتى منتصف الممر ويعود.. فكنت إذا خرج قمت واقفا لوقوفه.. وإذا عاد قمت واقفا لعودته ولا أجلس حتى يجلس.

وتكرر هذا الوضع أكثر من مرة.. ولاحظ الاديب الكبير ذلك ففاجأنى بخفة روحه قائلا: انت حتشتغل لى ولا إيه؟.. بلاش شغل الأراجوزات ده! يا أبنى انت قاعد تقوم ليه.. انت بزمبلك؟

وأردت أن أضحك لكننى خجلت من نفسى.. واستطرد الأستاذ يحيى حقى مناديا على الأستاذ رأفت فصيح رافعاً صوته: يا رأفت! فجاء صوت رأفت فصيح من الغرفة المجاورة: نعمين يا أستاذ يحيى؟ فقال: تعالى لو سمحت.. ولم تمض ثوان حتى كان رأفت فصيح أمامنا.. قال له الأستاذ يحيى وهو يشير الى: قول للأفندى أنا هنا أبقى إيه؟ قال رأفت فصيح كمن يحفظ الدور جيداً: أنت بابانا ياأستاذ يحيى.

قال: واحنا هنا إيه؟

قال: أسرة يا أستاذ يحيى! قال: قل له- يقصدنى-- فقال رأفت موجها كلامه لى: بص يا سامى وموش حأقول لك يا أستاذ سامى لأن إنت واحد مننا دلوقتى..إحنا هنا كلنا ولاد الأستاذ يحيى..آه.. أى نعم هو سفير وهو وزير لكن هنا هو أبونا.. فهمت؟ قلت: فهمت.. وكأن حملا كبيراً انزاح من على صدرى وعرفت الابتسامة طريقها الى وجهى الخائف منذ ذلك اليوم..وأحببت جدا العمل مع ذلك الرجل الكبير بشوش الوجه الضاحك المستبشر المتفائل دائما.

قال يحيى حقى: ودلوقتى ياالله فسحة.. فنهضت عائدا الى مكتبى تستقبلنى ابتسامة الأستاذ رأفت فصيح.

في المدرسة

وتوالت الدروس.. وهذا درس آخر في التواضع ..فمنذ رحلة قطار المترو في الدرجة الثانية مع الأديب العالمي العملاق تأكد لي أنني أصاحب إنساناً غير عادى.. وهذا الدرس الثاني يؤكد ذلك التواضع .

واستمر العمل في « المجلة» .. وفي كل يوم أكتشف إلى جوار يحيى حقي شيئاً جديدا وبعداً جديدا في شخصيته.

وتتوالى الذكريات.

كنت بحكم عملي اتردد على بيت الأستاذ يحيى حقي في منشية البكرى.. وفي ذلك البيت جلست أستمع من أستاذى كيف تصنع القهوة الإكسبرسو.. ودخلت معه المطبخ وشرح لي كيف يصنعها ومن أى أنواع البن.. وما هو أجود أنواع البن ومن أين يشتريه؟ وأصر أن يصنعها بنفسه ليقدمها لي قبل أن أبدأ مشوارى مع القراءة أمامة وفي إحدى المرات بينما أنا منهمك في القراءة وهو يستمع باهتمام شديد.. يستمع ويناقش ويشرح ويملى ملاحظاته وتعليماته وأنا في مقعد التلميذ أنصت وأتعلم.. ونرجع إلى قواميس اللغة أو إلى بعض الكتب في مكتبته لنتأكد من حقيقة وردت في المقال أو معلومة حول شخصية في دراسة.. وكأنني أتتلمذ على يدى أستاذ كبير أو شيخ عامود في صحن الأزهر.. وبينما نحن على هذه الحال إذا بنا في إحدى المرات نسمع صياح السيدة قرينته مدام چان من الداخل.. وكان تعليق الأستاذ يحيى حقي المبتسم دائما: الحرب قامت! ولم أدر ماذا أفعل.. هل ابتسم أم أتوجس أم أهتم.. المدام تصرخ.. لابد أن كارثة ما وقعت.. وهو برباطة جأشه واستقباله المتفائل للأمور يعلق قائلا في وداعة: الحرب قامت.. قوم بينا نشوف في إيه! ودخلت خلفه الى غرفة النوم ..كانت مدام چان في قمة الانفعال تصرخ معنفة الشغالة.. وهي سيدة بسيطة من بنات البلد كانت تتردد على منزل الأستاذ يحيى حقي للمساعدة في أعمال البيت .

دخل الأستاذ يحيى حقى يسأل قرينته بالفرنسية: ماذا هناك؟

وقالت له مدام چان بالفرنسية بالطبع ماذا أغضبها بينما الشغالة تقول: «ياييه أنا مش عارفة هى بتقول إيه؟»، فشرح لها الأستاذ يحيى بهدوئه الشديد: بتقول إنك حرامية.

قالت السيدة مدافعة عن نفسها: أنا؟ والله أبداً ياييه أنا معملتش حاجة .. وشرح الأستاذ يحيى للمدام بالفرنسية رد الشغالة.. فأصرت مدام چان على موقفها وأضافت تعزز اتهامها أنها شاهدتها تمسك فى يدها آلة حادة تحاول بها كسر ضلفة الدولاب لسرقة ما به.

وسألت السيدة: هى بتقول ايه ياييه؟

قال الأستاذ يحيى حقى: هى شافتك بتفتحى الدولاب بحاجة حديد فى إيدك وعايزة تسرقيه.

ولطمت السيدة خديها مولولة: «حرام عليكم أنا ست شريفة .. أنا عندى أولاد فى المدارس... أنا مش ممكن أسرق»!

وترجم الأستاذ يحيى حقى لمدام چان ماقالته السيدة ..فقالت مدام چان مشيرة إلى ضلفة الدولاب: إذن ماسر هذا الكسر فى الضلفة والدولاب.. أنت تعلم أنه كان سليما تماما؟!

وترجم الأستاذ يحيى للشغالة مقولة مدام چان.. فتراجعت السيدة وبدا أنها تحاول الإفلات فقالت مترددة: هو كان فعلا فيه شظية وأنا بانظف بالحتة شبكت فيها فشديتها ورميتها.

قالت مدام چان: نريد أن نرى هذه الشظية!.

وترجم الأستاذ يحيى حقى كلامها للشغالة فقالت: ياييه قلت لك رميتها.. وحسماً للنزاع الذى كنت أراقبه مشدوهاً.. فلأول مرة أرى وأتابع وأسمع معركة تدار بالترجمة من الفرنسية إلى العربية وبالعكس.. والحكم فيها والمترجم هو الأستاذ يحيى حقى!!.

كنت أتابع الموقف ذاهلا حتى التفت نحوى الأستاذ يحيى حقى وقال: سامى إنت

اللى حتحل لنا الإشكال ده.. انزل تحت فى الخرابة ودور على الشطية.. إذا لقيتها تبقى الست دى مظلومة!

قلت للأستاذ يحيى حقى: معقولة يا أستاذ يحيى أدور فى الخرابة وسط الزبالة على شظية ماتجيش سنتى!!

غمزلى بعينه: انزل بس يا ابنى اسمع الكلام.. إنت اللى حتحل لنا الإشكال ده!

وفهمت الاشارة ونزلت من الدور السادس إلى الأرض الفضاء المجاورة خلف العمارة.. بينما كان الأستاذ يحيى حقى ومدام چان والشغالة.. الثلاثة ينظرون من النافذة والأستاذ يحيى حقى يسألنى: لقيت حاجة؟ فأرد من أسفل: لأ مافيش! فيقول: معلهش دور كمان.

وأتظاهر بالبحث وأقول: مافيش! فيقول طب اطلع خلاص.

وأصعد الى الدور السادس لتسألنى مدام چان بالفرنسية: انت مالقتش حاجة؟ ويترجم لى الأستاذ يحيى حقى وأقول: أنا بحثت جيدا ولم أجد شيئا! ويقول هو للسيدة :قرينته مترجماً: سامى لايكذب.. هو بالفعل لم يجد شيئا ولابد أن شظية بهذا الحجم تتوه وسط أكوام المخلفات.. ولاينتهى الأمر عند هذا الحد فمدام چان تصر على طرد الشغالة من البيت!

ويقف الأستاذ يحيى عند الباب يقول لها وهى تغادر المكان مطيباً خاطرها: ماتزعليش ياستى الأرزاق بالله.. وترد السيدة وهى تستعد للنزول: أنا علشان خاطر انسانيتك يابيه استحمل أى حاجة.. سلام عليكم!

بيكاسو فى بيتى !

بعد فترة من عملى فى المجلة أصبت فى وجهى إصابة ترتب عليها حدوث تورم فيه بشكل ظاهر. وسأل الأستاذ يحيى عن عنوانى وفوجئت به يدق على الباب حاملا معه زهوراً هدية الزيارة للمريض.

وجلس الأديب الكبير إلى جوار فراشى يطمئننى ويطيب خاطرى ويواسينى ويضحك ..فأرد على ضحكته بابتسامة واهنة.

وتتشعب الموضوعات ويحكى يحيى حقى عن ذكرياته فى السفر وفى الخارجية ..ويقص من النوادر والطرف مايعيد الإبتسامة الى وجهى.. ثم يغرق فى الضحك من جديد.. ثم يستأذن وينصرف وأهم بالنهوض لأودعه.. لكنه يشير إلى ألا أتحرك ويفتح الباب ويخرج.

وبعد أيام عدت إلى المجلة مستأنفا عملى كالمعتاد.. وتذكرت أن أسأله لماذا كان يضحك عندما كان يزورنى فى مرضى.

قال: يا أخى حاجة غريبة جداً ..تصور أنهم بيقولوا إن بيكاسو ده رسام سيريالى ! قلت: طبعا يا أستاذ يحيى.. وهى دى فيها شك ؟!

قال: أبداً والله ده رسام واقعى جدا.

سألته: كيف ؟

قال: ألم تشاهد لوحاته التى يرسم فيها الوجه بثلاثة عيون ؟ قلت: نعم!

قال: وأشياء من هذا القبيل ؟! هذا الرسم اللامعقول أراه معقولا جدا.. وتأكدت من هذا عندما زرتك فى المنزل! وأغرق فى الضحك من جديد!!

خليها على الله

لم يكن زوار المجلة من الأدباء والكتاب قد توافدوا بعد.

كانت المجلة خالية في ذلك الصباح الذى سمعت فيه يحيى حقى يشكو للأستاذ أنور المعداوى عنت بعض الأساتذة الكبار في وزارة الثقافة والمجلس الأعلى للفنون والآداب.. وهجومهم على الشبان الذين يفتح لهم يحيى حقى أبواب المجلة ويتبناهم ويرعاهم.. وحجتهم في هذا أن المجلة سجل الثقافة الرفيعة وأنها إنما انشئت خصيصا للدراسات الأكاديمية للكبار وليست للشبان.

قال يحيى حقى لأنور المعداوى متأثرا: تصور يا أنور مستخسرين في الشبان كام صفحة نشجعهم بيها.. تصور!!

وقال أنور المعداوى يرحمه الله وهو يشعل ربما سيجارته العاشرة:

يايحيى بيه انت مش حتصلح الكون.. آدى أنت شايف عملوا فيا إيه! أنا خسرت صحتي وكنت حاموت!!

ورد الأستاذ يحيى حقى منفعلا: لأيا أنور لأ ..مش كده.. لازم نقول لأ.. لازم نقول رأينا.. الشبان دول هم أملنا! تصور مستقبلنا يبقى إيه من غير الشبان دول ..دول هم بكرة يا أنور!

قال أنـور المعـداوى : يا يحـيى بيه أنا عارف اللى بتقوله ده كويس.. ثم أضاف وهو يضحك: دا أنت نفسك اللى بتقول خليها على الله.. وضحك أنور المعداوى وضحك يحيى حقى.. وقد بدا أنه مازال مصـراً على اعتقاده.

صيف عام ١٩٦٥

كنا نعد لعدد عن طلائع القصة المصرية القصيرة تنفيذاً لاقتراح قدمه الأستاذ يحيى حقي لمجلس تحرير المجلة تشجيعا للمواهب الشابة في القصة القصيرة.. وكنا قد أعلنا عنه في الأعداد السابقة وأشعنا عنه في الأوساط الثقافية والأدبية في مصر حتى يوافينا شباب الكتاب بإنتاجهم ليتسع لنا الوقت لعرضه على كبار النقاد.. وذلك لكي نتمكن من نشر القصة مصحوبة بتعليق ودراسة الناقد عليها في نفس العدد .

بدأنا التحضير للعدد.. اتصلنا بالنقاد وتلقينا بالفعل مجموعة ضخمة من إنتاج شباب القصة القصيرة في مصر.

واستغرق هذا الجهد منا شهرين متتاليين عمل خلالهما كبار الفنانين التشكيليين في رسم القصص وكتابة الخطوط والجمع والتصحيح والمراجعة والإخراج الفني.. ودفعنا بالعدد الى المطبعة حتى يصدر في أغسطس عام ١٩٦٥ .. وتم كل شيء على خير وعدنا نحن- مجموعة العمل- إلى مقر المجلة في ٢٧ عبد الخالق ثروت نستجم ونستريح انتظاراً للعدد الذي يليه.

وفي عصر أحد الأيام من ذلك الصيف القائظ كنت وحدي في المجلة بعد أن انصرف الجميع..

كنت أجلس في الشرفة أشرب فنجانا من القهوة أعددته لنفسي.. ورحت استروح نسمة لطيفة في عصر ذلك اليوم مرتباً نفسي أن أتصل بالأستاذ يحيى حقي تليفونيا اطمئنه على سير العمل في العدد.. حيث كان يستعد للسفر إلى فرنسا كعادته مع السيدة قرينته.. وكنت أعلم أنه ينام فترة الظهيرة ويستيقظ حوالي الساعة الرابعة أو الخامسة.. فكنت في المجلة انتظر حتى يستيقظ فأهاتفه ثم أخرج من المجلة وانصرف.

في تلك الفترة خيل إلى أنني أسمع صوت خطوات في دهليز المجلة .. فقمت أرى من

الداخل .. وفوجئت بأحد الشباب .. كان واضحاً أنه يبحث عمن يتحدث إليه من أسرة المجلة كان أبيض الوجه قد نبت شعر لحيته وكانت له ملامح مميزة .. سألني: هي دي المجلة؟

قلت: أيوه.

قال: الأستاذ يحيى فين؟

قلت: في البيت!

قال: أنا معايا قصة لعدد القصة .

قلت ببراءة شديدة: العدد انتهى!

قال ثائرا: يعني إيه انتهى؟ يعني بتضحكوا علينا؟ تعملوا اعلانات عن العدد ولما نجيب لكم قصة تقولوا مافيش قصة! مافيش عدد!

قلت: حقيقي العدد انتهى!

قال: أنا معرفش .. يعني أنا آجي لك من إسكندرية علشان تقول لي العدد انتهى؟!

أضاف ومازال انفعاله لايهدأ: من فضلك أنا عايز الأستاذ يحيى حقي!!

قلت له: سبق أن قلت لك الأستاذ يحيى في البيت..

قال في عناد واضح: اطلبهولي دلوقتي!

قلت: ما اقدرش . الأستاذ يحيى دلوقتي يبقى نايم..

قال وقد أسقط في يده: وأنا أعمل إيه دلوقتي؟! أنا جاي من إسكندرية وعامل حسابي إني أجيب لكم قصة للعدد.. تقوم حضرتك تقول لي: العدد خلص؟! من فضلك اطلب لي الأستاذ يحيى .

قلت أهدىء خاطره :أوعدك إن أنا حاطلبه بس بعد شوية لما يصحى.

قال : وتقول له إن أنا جاي من اسكندرية ومعايا قصة.. أنا متأكد أنه لما حيقراها حيشيل أي حاجة من العدد وينزلها.

قلت مندهشا: ياسلام للدرجة دي؟!

قال في ثقة: أيوه.. توعدني؟

قلت: أوعدك.. فسلمني القصة مستسلما وانصرف .. وعند باب المجلة استدار يقول: أرجوك.

قلت اطمئن .. فانصرف .. وجلست أنا أتسلى بقراءة القصة حتى يحين موعد الأستاذ يحيى .. واندهشت.. فلأول مرة أصادف قصة من هذا النوع..

كان الكاتب الشاب هو الأستاذ محمد إبراهيم مبروك وكان عنوان القصة «نزف صوت صمت نصف طائر»!

قرأت القصة مرة ثم مرتين.. ثم قمت من فورى أتصل بالأستاذ يحيى حقى أنقل إليه هذا الخبر الجديد.

على التليفون جاءني صوت الأستاذ يحيى يسأل: أيوه ياسامى إيه الأخبار؟!

قلت: العدد خلص يا أستاذ يحيى.

قال: حلو قوى قوى.. مافيش فيه حاجة غلط؟!

قلت: لأ.. العدد زى الفل ح يعجبك قوى.

قال: أنا حا أكون سافرت.. لما آجى بقى أبقى اشوفه.. عايز حاجة يا سامى؟!

قلت: حصلت حاجة غريبة ولازم اقول لك عليها.

قال: قوى.

قلت: جاني شباب اليوم يحمل قصة للعدد.

قال: يا ابنى العدد خلص.

قلت: أنا قلت له كده يا أستاذ يحيى لكنه مصمم.

قال يسألني: يعنى إيه مصمم؟..مين ده ياسامى؟ قلت: ما أعرفوش..

قال: مش واحد من ولادنا؟

قلت: لأ.

قال: خالص خالص؟

قلت: ما أعرفوش يا أستاذ يحيى.

قال: اسمه إيه؟

قلت: محمد إبراهيم مبروك.

ردد الأستاذ يحيى حقى الاسم بينه وبين نفسه: محمد ابراهيم مبروك.. ماشفتوش خالص يا سامى قبل كده؟

قلت: لأ.. أول مرة..

قال: هه وبعدين؟

قلت: بيقول إن حضرتك لو قريت القصة حترمى أى حاجة من العدد وتاخدها.

قال: يا سلام! للدرجة دى ؟اسمها إيه القصة دى؟

قلت: «نزف صوت صمت نصف طائر».

جاءنى صوت الأستاذ يحيى حقى من بعيد: افندم؟ قالها مستنكرا وكأنه لايصدق ماسمع.. بتقول ايه؟

قلت للمرة الثانية: « نزف صوت صمت نصف طائر»..

قال وهو يضحك ضحكة خفيفة: غريبة قوى.. طيب بعد إذنك ياسامى تجيبها لى وتيجى فوراً.

قلت: أنا ناوى كدة برضه يا أستاذ يحيى بعد إذنك.

قال: تعالى على طول.. وأغلق التليفون.. وأغلقت أنا بدورى باب المجلة ونزلت استقل المترو إلى بيته فى مصر الجديدة.

فى المترو أعدت قراءة القصة مرة ثالثة ورابعة.. لم تكن ككل القصص التى سبق أن قرأتها لنفسى أو مع الأستاذ يحيى حقى.. لكننى أعترف أننى لم أفهم القصة من أول مرة..كانت صعبة على الفهم.. لم تعطنى سرها من القراءة الأولى.. ووضعتها فى جيبى وذهبت إلى الأستاذ يحيى حقى.

قال: إيه يا سيدى بقى الحكاية؟ أما دى حكاية غريبة صحيح.. اتفضل.. تشرب قهوة؟

قلت: أشرب .

شربنا القهوة.. وجلس الأستاذ يحيى حقى يستمع ورحت أقرأ .

قرأت القصة مرة فاعتدل فى أدب شديد وقال: معلهش يا سامى اقرأها ثانى.. فقرأتها مرة ثانية فقال: آه..كده!

قلت : كده إيه يا أستاذ يحيى؟

قال: حاترجاك تقراها لآخر مرة بس ببطء شوية .

وقرأتها للمرة الثالثة معه وببطء.

قال: فهمت بقى؟!

قلت: والله يا أستاذ يحيى ما أخبيش عليك القصة غامضة شوية على.. إنما أنا بيتهيأ لى انها من أدب الاعتراف.

قال: ياسيدى بطل القصة هو المتكلم.. هو الكاتب.. بيعترف بعجزه هو مفتاحها ..ده اعتراف.. القصة ياسامى فيها شفافية شديدة جدا.. مكتوبة بلغة تقترب من الشعر.. يعنى فيها تكثيف لغة شديد جدا.. هو ما بيحكيش حكاية.. اسمع.. انت تنزل من هنا على طول على الأستاذ مرعى المخرج الفنى وتقرا ها له وتفهمها له علشان يرسمها وتخلص من عنده.. تطير على الخطاط يكتب لك عنوانها ..وبعدين الصبح أول حاجة تعملها تكون فى المطبعة تشيل أى حاجة قدها وتنزل القصة دى.

قلت مندهشا: أى حاجة يا أستاذ يحيى؟

قال: أى حاجة إن شا الله مقالى أنا!

قلت واندهاشى يزيد: أمرك يا أستاذ يحيى ..بس.

قال: مابسش ولا حاجة..تعمل زى ما بأقول لك بالظبط.

قلت لنفسى: يعنى محمد إبراهيم مبروك ده كان عنده حق .

ولم تنته دهشتي .. خرجت من عند الأستاذ يحيى حقى الى منزل أحمد مرعى المخرج الفنى للمجلة ورسامها أيضا .

قرأت القصة عليه، فقال مندهشا :نعم؟! يعنى إيه الكلام ده؟!

قلت: دى أوامر الأستاذ يحيى حقى.

قال: أنا فاهم.. بس أنا مش فاهم القصة!

قلت: أشرحها لك .. دا اعتراف يا أحمد.. والكاتب هنا بيعترف بعجزه.. كذا وكذا..

وشرحت له القصة كما شرحها لى الأستاذ يحيى حقى.

قال: كده أفهم.. ثم راح يرسم القصة ويضع لها الإخراج الفنى.

رسم الأستاذ أحمد مرعى الماكيت والقصة وقال: دى مسئوليتك.. أنا خلصت المطبعة والعدد خلص والباقى عليك إنت بقى .

قلت: أنا نازل من عندك على الخطاط على طول.. وبالفعل نزلت من منزل الفنان أحمد مرعى فى شارع منوف بمصر الجديدة إلى مدينة الإعلام بجوار مسرح البالون حيث يقيم الأستاذ جابر الجيار خطاط المجلة.. وفى منزل الأستاذ جابر الجيار كانت لنا حكاية أخرى.

قرأ الأستاذ جابر القصة وهو فنان أيضاً يتذوق الكلمة وكان «ابن نكتة» دائم المرح.. ثم قرأ العنوان متمعناً وأبدى دهشة أوسع من دهشتى..

قال مرددا العنوان: نزف صوت صمت نصف طائر.. ياه.. دا مشوار كبير قوى.. ثم راح يكتبه كما جاء فى الماكيت وسلمنى الخط وقال: ربنا معاك.. حتعمل إيه؟

قلت: الصبح بدرى حاكون فى المطبعة أدور لها على مكان فى العدد.

قال جابر الجيار بخفة ظله المعروفة : يا.. للدرجة دى؟.

قلت : للدرجة دى ياسيدى.

ونزلت من عنده إلى بيتى فى مصر الجديدة.. وفى الصباح التالى كنت فى المطبعة فى ساحل روض الفرج أجمع القصة.. وقال لى الجميع هناك إن العدد قد انتهى بالفعل.

قلت: هذه أوامر الأستاذ يحيى حقى.

قالوا: يا سيدى العدد اللى بعده.. تعال بنفسك شوف.

ونزلت إلى المطبعة.. كان العدد بالفعل على ماكينات الطباعة أراه أفرخاً جاهزة للتجليد.. فاسقط فى يدى وتركت لهم القصة تجمع للعدد التالى..

وسافر الأستاذ يحيى حقى إلى فرنسا كعادته فى كل عام مصطحبا قرينته فى أجازته السنوية.. وعاد وقد نسى أمر القصة كما نسيتها أنا أيضا.

وجرى الاستعداد للعدد التالى بعد أن صدر عدد القصة ولاقى من الاستحسان والإعجاب داخل الوسط الأدبى والثقافى فى مصر حظاً كبيراً ونلنا بسببه تهنئة كل العاملين معنا فى المجلة وكل المترددين علينا من الأدباء والفنانين المشتركين فى العدد أو الذين لم يشتركوا فيه.. ودخلنا فى دوامة العدد الجديد وانتهينا منه.. وبينما نحن نضع مكافآت العدد إذا بالأستاذ يحيى حقى ينتبه فجأة ويسأل: أمال فين قصة أخونا ده اللى قرأتها لى فى البيت؟

قلت: آه داحنا نسيناها يا أستاذ يحيى!

قال: إحنامين؟ أنت اللى نسيتها!

قلت: آنا آسف.. أنا بالفعل والله صدقنى ذهبت للمطبعة وكان العدد قد انتهى بالفعل.

قال: يا ابنى أنا قلت شيل مقالتى وحطها.

قلت: يا أستاذ يحيى المسألة لم تكن مسألة مساحة.. العدد كان انتهى بالفعل صدقنى أرجوك.. كان العدد أفرخاً مطبوعة ناقصا على التجليد فقط.

قال: مانزلتش العدد اللى بعده ليه؟

قلت: دى غلطتى.. أنا بالفعل نسيت القصة فى العدد.. لكن أنا كنت صادق النية لما ذهبت لأحمد مرعى رسمتها وعملت لها الماكيت وأخذتها للخطاط فى نفس اليوم ووديتها تانى يوم المطبعة وجمعتها لكن العدد كان انطبع خلاص.

قال: خلاص أرجوك .. خلاص.. مش حنتكلم فى الموضوع ده تانى.. العدد الجاى لازم تكون القصة فى العدد.

قلت: حاضر.

قال وفي عينيه غضب حقيقي لم أره منذ عملت معه مطلقا: يا سامي القصة تنزل .. أرجوك أنا مهتم بها جداً.

قلت: أعدك يا أستاذ يحيي القصة ستنشر.

قال: طيب متشكر .. وانصرف وكنت أعلم أنه غاضب بالفعل.

وزارنا الأستاذ محمد إبراهيم مبروك وشد الأستاذ يحيي حقي على يده مهنئاً ومتنبئا له بمستقبل عظيم في عالم القصة والكتابة.. واعتذر له عن غلطتي غير المقصودة.

وصرت أنا ومحمد إبراهيم مبروك صديقين من بعد ذلك وحتى اليوم.

شهادة ميلاد

كتب الأستاذ يحيى حقى شهادة ميلاد محمد إبراهيم مبروك يوم دفع بقصته إلى المطبعة.. ولأن الشىء بالشىء يذكر فقد كتب يحيى حقى شهادة ميلادى أنا أيضا ككاتب قصة..

كنت أكتب شيئاً من الشعر وأعالج القصة قبل أن أنضم إلى أسرة تحرير المجلة.

وفكرت فى أن أعرض شيئاً من إنتاجى على الأستاذ يحيى حقى.. لكننى ترددت وترددت طويلا .. فها هى الاسماء التى نقرأ لها ونقرأ عنها أراهم اليوم فى المجلة يجلسون أمام العملاق فى مقعد التلامذة.

وظللت بين اليأس والرجاء فترة من الزمن حتى قررت ذات ليلة أن أحمل إليه إحدى قصصى.. ووضعتها فى جيبى حتى الصباح.

فى ذلك اليوم رحت أتحين أى فرصة لأقرأ قصتى ضمن ما قرأ من قصص وشعر ومقال على الأستاذ يحيى.. لكن شجاعتى خانتنى.

حدث ذلك فى اليوم الأول.. وتكرر فى اليوم الثانى والأسبوع الأول والأسبوع الثانى.. ومر شهر وربما شهران.. وتهرأت القصة فى جيبى فكنت اغير غلافا بغلاف واستجمع شجاعتى لأذكر له أننى أيضا أكتب القصة القصيرة وأرجو أن يستمع إلىّ.. وماذا يخيفنى -قلت لنفسى- وهو على هذه الحلاوة والبشاشة والسماحة وطيبة الأخلاق؟ وكان الأستاذ يحيى حقى كعادته فى كل يوم عندما يغادر المجلة يسأل: عايزين حاجة؟ فنشكره ونودعه.

وذات يوم كنت قد قررت وبشكل نهائى أن أحسم هذه المسألة .

وحمل الأستاذ يحيى حقى حافظة أوراقه والعصا والبيريه وتهيأ للإنصراف فترددت.. ولم أكن كعادتى معه.. كنت صامتا أغلب الوقت فسأل: فى حاجة يا سامى؟

قلت: آه فى قصة عايزين نقراها ..فجلس ثانية دون أن يناقش ووضع حافظة الأوراق والعصا والبيريه وتهيأ للاستماع معتمدا بذقنه فوق يده.

اخرجت القصة من جيبى فالتفت نحوى وسأل: هى قصة مين دى؟

قلت متلعثما: قصتى أنا!

قال فى شىء من الاندهاش: أنت بتكتب قصة يا سامى؟!

قلت: أيوه.. ما أنا سبق وقلت لحضرتك!

قال: آه.. طيب اقراها.

وعاد يعتمد بذقنه على راحة يده.

قرأت القصة بصوت مرتعش وقد جف حلقى ..وما أن انتهيت منها حتى رفعت اليه عينين خائفتين تنتظران حكمه!!

اعتدل الأستاذ يحيى حقى فى جلسته وقال: اقراها تانى كده يا سامى ..فقرأتها من جديد.

خبط الأستاذ يحيى حقى بأصابعه على المنضدة أمامه.. ثم جمع أشياءه وقام منصرفا بينما أنا أسير من خلفه وقد أدركت أن صمته يعنى رأيه فى قصتى الذى لم يشأ أن يصدمنى به لرقة مشاعره.. كان احساسى بالاحباط وخيبة الأمل شديدا..

أمام باب المصعد قال وابتسامته تتسع: تنزل من هنا تروح فين؟ سألته: فين؟ قال: على المطبعة على طول تضعها فى العدد!

قلت والفرحة ترقص داخلى : أنا يا أستاذ يحيى؟

قال فى هدوء شديد: أيوه..

قلت معاتبا: لكن يا أستاذ يحيى؟!

قال قبل أن يغيب داخل المصعد: حبيت أتفرج عليك فى لحظة زى دى.. يالله!

أردت أن أعانقه لكننى لم أفعل.

وانبهرت أنفاسى من الفرحة.. قال: وهو يودعنى: أنا مش مروح يا سامى النهاردة.. أنا حاعمل كام مشوار.. خليك انت.. فعدت إلى مكتبى أريد أن أعانق الدنيا.. فقد كتب الأستاذ يحيى حقى شهادة ميلادى اليوم ككاتب قصة..

مدرسة منتصف الجسر!

فى مدرسة يحيى حقى تبدأ الدروس ولاتنتهى.. دروس فى الأدب والفن والثقافة ..وأهم من هذا كله وأخطر دروس الحياة.

نقرأ معا قصة لأحد الكتاب..يقطع يحيى حقى استغراقه- وكأنما يخاطب نفسه -ليقول: ولماذا يقول الكاتب هنا.. فى منتصف الجسر تماما وقفت!

يسأل يحيى حقى منزعجا: فى منتصف الجسر تماما؟ يا ألطاف الله! هل ذهب ومعه المتر ليقيس الجسر ثم يضع علامة على المنتصف تماما ليقف فيها؟!. أكمل...أكمل..

وفى قصة أخرى يقول الكاتب مثلا: هببت واقفا.. ويندهش يحيى حقى ويقول: ولماذا هب واقفا؟ لماذا لم يقل نهضت؟ الانفعال هنا لايساوى الفعل.. لماذا لايقول قمت واقفا؟

وفى عمل ثالث ورابع يتوقف لمناقشة أدق التفاصيل وأبسطها وأعقدها.

مع يحيى حقى لم تتوقف الدروس.. كان هو الأستاذ وكنا نحن صغاراً أو كباراً تلاميذه.

يقول فى إحدى المرات شارحاً لى كيف يمكن أن أصف إحساسى بدقة.. ولا أخفى دهشتى من ذلك الدرس العملى..يقول: اغمض عينيك ثم يمسك كفى فيمر بها على جلد المقعد والحقيبة.. ويسألنى: هل تستطيع وأنت مغمض العينين أن تصف لى ما تحس الآن وكأنك تراه بعينيك؟ أقول محاولا التركيز فيما كان هو يتابعنى: الجلد فيه بعض البرودة.. خشن بعض الشىء.. وفيه ليونة ..فيقول وهو يضع قبضة يدى على خشب المنضدة.. والآن صف لى ما تشعر به. أواصل الوصف.. فيقول: افتح عينيك الآن وتأمل ماوصفته ..ويواصل كأنما يكلم نفسه: يابنى تعلم كيف تعيش.. كيف تسمع جيدا..كيف تحس جيدا.. الفن يا ولدى لا يعرف أنصاف الحلول.. الفن هو بلوغ الغايات..يعنى الحب

بعنف والكراهية بعنف والخير بأقصى ما تستطيع والشر بنهاياته.. الفن لايعرف الفتور.. الفن هو الثراء.. والأديب لابد أن يكون إنسانا فاحش الثراء.. وثراؤه هنا ثراء الإحساس وثراء اللغة.. وظيفة الأديب يا ولدى أن يثرى اللغة لا أن يستعملها فقط.. أن يضيف إليها.. أن يجرها من الماضى الى الحاضر وأن يدفع بها أيضاً الى المستقبل.. أن تحيا على يديه..أن تزدهر بين أصابعه.. اقرأ مثلا لكاتب مثل عبد الحكيم قاسم.. تأكد أنه فى كل عمل يضيف الى نهر اللغة مياهاً جديدة...وكان يحيى حقى يرحمه الله من أشد المعجبين بالأديب الراحل عبد الحكيم قاسم.

فى مدرسة يحيى حقى

جاءنا ذات يوم النقيب إسماعيل ولى الدين...ضابط مهندس فى القوات المسلحة يلبس زيه الرسمى ويحمل حقيبة سوداء قديمة حشاها بأوراق الكتابة.. واستأذن بعد أن قدم نفسه أن يقرأ للأستاذ يحيى حقى شيئا مما يكتبه.

وكعادته بوجهه البشوش المرحب قال الأستاذ يحيى: أهلا وسهلا.. قلت لى حضرتك مين؟

قال: نقيب مهندس إسماعيل ولى الدين.

قال: أستاذ إسماعيل أنت كتبت إيه؟

قال إسماعيل ولى الدين: أكتب رواية لعلها تكون مقدمة لعمل كبير.. وربما يكون ثلاثية.. لا أعرف الآن.

قال يحيى حقى: اقرأ.

وتكررت زيارات إسماعيل ولى الدين للمجلة وفى كل مرة يقرأ ويشطب ويضيف ويحذف بناء على ملاحظات الأستاذ يحيى.

وكان يحيى حقى يناقشه فى أدق تفاصيل فن العمارة وهو المهندس المعمارى.

وقال يحيى حقى لى فى إحدى المرات: هذا الشاب سيكون أديبا كبيراً لو أخلص لما يعمل.. إحساسه بالعمارة والحارة والبناء إحساس متدفق فيه حب.. والحب هو أول عناصر النجاح.

تكررت زيارات إسماعيل ولى الدين.. وكان يحيى حقى صاحب الفضل أيضاً فى أن قدمه للناشر بتوصية شديدة وضع فيها كل اهتمامه بالأديب الجديد.

وقال يحيى حقى لنا نحن مجموعة الشبان الذين كنا نلتف حوله كل يوم فى عمله بالمجلة أو فى ندوته بالمجلة.. أو فلنقل فى « المندرة» كما وصفها الأديب خيرى شلبى .. قال لنا: إن ميلاد أديب جديد هو ظاهرة كونية لابد أن تحتفل بها كل الدنيا.. فليس فى كل يوم يولد فنان.. ميلاد فنان أخطر ما يمكن أن يحدث على ظهر هذه الأرض.. ولهذا .. ولشدة إيمانه بالشباب كان يحيى حقى يعانى من ضيق نظرة بعض الأساتذة الكبار نحو الأدباء الشبان للأسف الشديد.. وكما كانت ندوة يحيى حقى فى المجلة -التى هى صميم عمله.- حفلا يوميا لنا نحن الشبان ..فإنها أيضا كانت سامرا ومنتدى لأدباء كبار.

فى سامر يحيى حقى التقينا نحن الشباب أدباء وشعراء وقصاصين وروائيين ومسرحيين ندق أبوب المستقبل بالأستاذ الدكتور محمد مندور والأستاذ الدكتور محمد غنيمى هلال والأستاذ الدكتور شكرى محمد عياد والأستاذ الدكتور جمال حمدان والأستاذة الدكتورة سمحة الخولى وبالأستاذ جمال عبد الرحيم الموسيقار والأستاذ الدكتور يوسف شوقى وبالأستاذة الدكتورة فاطمة موسى وبالأستاذ الدكتور مصطفى سويف وبالدكتور الخشاب وآخرين..

كانت حياة عامرة مفعمة بالفن والثقافة والأمل فى المستقبل.

فن الغيبوبة!

كنا ذات يوم صيف قائظ الحرارة.. جلس الأستاذ يحيى حقى يتكلم فى أمور الفن والأدب.. وحوله جلس بعض الشباب من مريديه وأصدقائه وأبنائه.. وظل من ظل.. وانصرف من انصرف.. ثم فجأة وعلى غير انتظار دخل علينا النجم الأديب الدكتور(......)، حيا وجلس.. كانت زيارته مفاجأة للجميع فهذه ليست عادته.. وكأنما أحس هو بما يدور فى خواطرنا فقال مفسرا: وجدت نفسى أسفل المبنى فقلت أصعد وأسلم!

قال يحيى حقى مرحباً ومبتسما فى ود: أهلا وسهلا انت شرفتنا يا دكتور.. ثم رأيته يتراجع للخلف فجأة.. وكان من عادته أن يقترب من وجه محدثه يستمع إليه ويراه عن قرب.

وظل يحيى حقى على جلسته هذه.. وشعر الأديب النجم بما يحدث فقال شارحا ومعتذرا: يا يحيى بيه.. حرّ الواقع شديد وحارق.. ولابد للفنان أن يرتفع قليلا.. وأشار بكفه فوق المنضدة تاركا مسافة بين كفه وبين سطحها وكأنه يشير إلى المساحة أو المسافة التى يجب أن ننفصل فيها عن الواقع.

قال: مساحة... مسافة تترك لنا فرصة للتأمل والرؤية من بعيد كما تعلم يا يحيى بيه أفضل من الالتصاق بالواقع الذى يسطح الرؤية!

استمع يحيى حقى ولم يعلق.

وفجأة قام واقفا ومد يده للأديب النجم.. الذى فوجىء بأن يحيى حقى ينهى الجلسة فقام واقفاً بدوره.. وصافحه يحيى حقى قائلا: انت شرفتنا قوى يا أستاذ.. خلينا نشوفك!

وانصرف الدكتور وعدنا نجلس.. وانصرف الضيوف وخلت الحجرة إلا منى ومن يحيى حقى.. الذى استند بجبهته على كفه لحظة.. ثم قال: ما تصدقش ياسامى ولا كلمة من اللى قالها.. الأدب يا ابنى محتاج لأشد الوعى.. أفندم؟.. وكانت هذه لازمته فى الكلام -محتاج لاحتشادك.. محتاج أن تكرس كل قوتك.. وضم قبضته ودق بها على المنضدة دقاً خفيفا وقال: إنت محتاج لكل طاقتك وكل تركيزك علشان تتولد على يديك كلمة أو معنى أو صورة.. إنما إنك تبحث عن مبرر لتغيب عن الوعى بمخدر أو بخمر فده هو الجنون.. وده هو السقوط.. وأنت إذا فعلت الفعل فأنت فى الحقيقة تبحث عن مبرر لتقنع به الآخرين.. وترديدك لهذا المبرر معناه أنك أنت نفسك لا تقتنع به وان كنت تتمنى أن تقتنع.. وأنا متأكد أن نهاية الأديب أو الفنان الذى يعتمد على المخدر لكى ينتج فناً تكون سريعة وقريبة جداً ولن يعمر طويلاً..صدقنى.

وقد صدقت يحيى حقى.

ابن البلد.. يحيى !

يقول الأديب الكبير: لو كسرت أى «زلطة» تلاقينى جواها!

شعر يحيى حقى بأشد الألم عندما هاجمه بعض النقاد عند صدور روايته القصيرة «قنديل أم هاشم» واتهموه بأنه تركى وليس مصريا.. عقاباً على جملة وردت فى الرواية يقول فيها واصفا المصريين فى مشهد من المشاهد: « بولهم دم وبرازهم ديدان! » ،وكان يصف فيه بعض الفقراء من أبناء حى السيدة زينب.

غضب يحيى حقى وتأثر أشد التأثر وقال: الطبيب الذى يصف لك مرضك هل هو عدوك؟ الذى يقول لك أنت مثلا مصاب بمرض الربو أو أى مرض من الأمراض هل يسبك؟. هل يتجنى عليك؟ أم أنه يريد بوصفه المرض شفاءك؟!

أنا مصرى أكثر منهم.. وأنا من تراب هذا البلد.

تلقيت تليفوناً من يحيى حقى ذات صباح.. قال: بتعمل إيه؟ قلت: لاشىء: استعد للذهاب إلى المجلة.. فقال بأدبه الشديد: ممكن أستأذنك تمر عليا؟ فكنت عنده بعد نصف ساعة.. قال: أريدك اليوم فى مسألة مهمة جدا جدا.. وكانت هذه عادة يحيى حقى فى المبالغة.. وفى الطريق إلى المترو قال لى: يا أخى فى حاجة عند الإسعاف مشى لاقى لها تفسير!! سألته ماذا يعنى؟ فقال: ألاحظ يوميا سيدة فلاحة تجلس مستندة إلى جوار مستشفى الولادة تنادى على شىء فى حلة أمامها فوق النار لا أعرف ما هى.. هل يمكن أن تساعدنى فى أن نعرف ما الذى تبيعه! قلت: صف لى نداءها.. قال؟ أظنها تنادى على شىء اسمه المشوى أو المشاوى.. قلت: تقصد المنشيوى؟ قال: تمام كده! قلت: هذا يا أستاذ يحيى هو الفول الأخضر مطهواً وعليه بعض الملح يباع للفقراء.. قال: ويأكلونه هكذا؟ قالها باندهاش شديد! قلت: نعم.. قال: هل يمكن أن نشترى منه شيئاً لنجربه؟ قلت: المسألة بسيطة..

ونزلنا بالفعل عند الإسعاف وكان من عادتنا أن ننزل في ماسبيرو.. وانتظرني الأستاذ يحيى بجوار معهد ليوناردو دافنشي وعرجت أنا على السيدة واشتريت منها ما قيمته في هذا الوقت ٢٥ قرشا.. وكانت كمية كبيرة جدا وضعتها المرأة في قرطاس من صفحة جريدة كاملة.. وحملته والماء يقطر منه وعبرت به الشارع إلى الأستاذ يحيى حقي الواقف على الناصية الأخرى.. فلما رآني على هذه الصورة ابتسم ابتسامة واسعة وكادت تفلت منه الضحكة.. وأسرع مبتعدا عني وأنا ألاحقه.. ولم يدر في ذهني أنه يهرب مني حتى أنني اضطررت للنداء عليه: يا أستاذ يحيى.. يا أستاذ يحيى فيما كان هو يبتعد.. حتى انتحينا جانبا من الطريق ليس فيه مارة فقال: افتح القرطاس.. ففتحت ونظر فيه ومد أصابعه وأخرج قرناً من الفول رفعه أمامه في النور.. ثم ألقاه بعيدا وقال مندهشاً: يأكلون هذا الشيء؟

قلت.. نعم! قال: ولماذا؟ قلت: لأنه رخيص.. قال: وما طعمه؟ قلت: أنا لم آكله ..قال: هل يمكن أن تأكل واحدة؟ فهممت أن آكل واحدة لكنه أسرع يخطفها مني ويرميها بعيداً وقال: احترس ربما تكون ملوثة.. ثم أشار قائلاً: ألق هذه القمامة بعيداً وهيا بنا ننصرف! قلت: ولماذا كل هذا يا أستاذ يحيى؟ قال: كنت أريد أن أعرف ما هذا الذي تبيعه فقط.. والآن عرفت وانتهى الأمر.. ألقه وهيا بنا نبدأ يومنا في المجلة..

ومضينا في الطريق نعلق على مانراه ونتكلم في أمور العمل حتى وصلنا إلى المجلة.. وفي المصعد قال الأستاذ يحيى حقي ينهي الموضوع: إنس هذا الموضوع بالمرة.. لكنني بالطبع لم أنس!

دبلوماسي ساخر!

كنا نعد لعددنا السنوى عن عيد العلم وجوائز الدولة التقديرية والتشجيعية فى مختلف فروع العلم والثقافة.. وتأخرت علينا مقالة الدكتور يوسف شوقى عن الموسيقار أبو بكر خيرت.. اكتمل العدد أو كاد ولم تأت المقالة.. والتفت الأستاذ يحيى حقى يسأل: الأستاذ يوسف شوقى مابعتش المقال بتاعه؟ وأجاب الأستاذ فؤاد دوارة بالنفى.. فقال الأستاذ يحيى على الفور: طيب حد منكم بسرعة يكلمه ويقول له يحيى حقى بيقول لك بطل خبط على الصفايح واقعد اكتب.. ومعروف بالطبع أن الدكتور يوسف شوقى كان موسيقيا أيضا.. إضافة إلى أن درجته العلمية كانت فى فرع دقيق من فروع الجيولوجيا.

وفى مناسبة أخرى كان يحيى حقى قد عاد من أجازته السنوية مع قرينته من فرنسا وحمل فيما حمل من هدايا لنا نحن أسرة المجلة.. وكانت هذه عادته فى كل عام ..حمل إلى -وكنت حديث عهد بالمجلة -علبتين من السجاير المعروفة اسمها «چيتان» أو الغجرية باللغة العربية.. تأثرت للمجاملة الرقيقة من أستاذ كبير وأديب مرموق.. تأثرت لأنه تذكرنى ولم أكن قد أمضيت وقتا طويلا فى المجلة.. لكنه -وكانت هذه إحدى فضائله- لم يكن ينسى مخلوقا.. شكرت الأستاذ يحيى فرد فى تواضع: هذا لاشىء لاتقل هذا.. وبعدها بفترة وأثناء العمل تحسست يدى جيبى ووجدت علبتى السجائر فكررت شكرى عليه وقلت: والله يا أستاذ يحيى ما تتصورش أنا متأثر قد إيه إن حضرتك مانسيتنيش فقال: يا ابنى هذه أشياء بسيطة.. لاتقل هذا.. أرجوك إنس هذا الموضوع.

ويبدو أن فكرة النكتة كانت قد اختمرت لدى الساخر الأديب يحيى حقى فأضمرها لى.. وعندما هم بالانصراف مشيت معه أودعه حتى باب المجلة.. قلت له للمرة الأخيرة: أنا متشكر قوى ياأستاذ يحيى على هديتك!

قال الأستاذ يحيى: يا ابنى ما تقولش كده دى حاجة بسيطة.. السجاير دى بيشربوها الزبالين فى فرنسا!..

وضحكنا جميعاً.. وكان هو أول الضاحكين!

مقلب من رئيس التحرير!

كعادتنا اجتمعنا نناقش مواد العدد الجديد من المجلة.. وكان من ضمن ما ناقشه صورة الغلاف التي كان الأستاذ يحيي حقي يهتم بها أشد الاهتمام ..فكان يكلف فنانا تشكيليا بشرح صورتي الغلاف: الوجه والظهر.. وفي الفترة الأخيرة من عمر المجلة كان يتولى هذا الشرح والتعليق المرحوم الأستاذ بدر الدين أبو غازي وكيل وزارة الخزانة الأسبق ووزير الثقافة بعد ذلك..

ما علينا.. كان المشرف الفني للمجلة هو الفنان المعروف حسن سليمان وكان يعاونه في التنفيذ الفنان التشكيلي المرحوم الأستاذ سعد عبد الوهاب ..واختار لنا الأستاذ حسن سليمان صورة لفنان مصري معروف يصور فلاحة تجلس في ركن من السوق تبيع بيضاً. والصورة تصور الحياة في السوق لكن ألوانها فيما بدا لنا- ولعل هذا بسبب عيب في طبع الفيلم- كانت باهتة بشكل ملحوظ.

وعلق الأستاذ فؤاد دوارة باعتباره عضوا في هيئة تحرير المجلة- وهذا من حقه- وقال موجها كلامه للأستاذ يحيي حقي والأستاذ حسن سليمان.. قال معلقا: بس الصورة بهتانة شوية.. ودي ملاحظة سمعتها من أكثر من واحد.. وياريت أخونا الفنان حسن سليمان يهتم بأنه يختار الصور اللي ألوانها ناطقة لأن الألوان بتحيي الغلاف وتساعد في رواج المجلة.. وهي قيمة أيضا فنية.

ولم يعجب الكلام من غير متخصص الفنان حسن سليمان.. فقال موجها كلامه للأستاذ يحيي حقي أيضا ويقصد به الأستاذ فؤاد دوارة: هذا الكلام لايصدر إلا عن إنسان لا علاقة له بالفن ويمكن أن تقوله أي بائعة جبنة!!

انطلقت القذيفة إذن من فم حسن سليمان.. ولم يرض بهذا المستوى من المناقشة الأستاذ فؤاد دوارة فاحتد على الفور واشتعلت المناقشة.

وارتفع صوت الأستاذ فؤاد دوارة: يرضيك كده يا أستاذ يحيى؟ يرضيك اللى بيقوله الأستاذ حسن سليمان.. يشبهنى ببائعة جبنة؟!.. ثم استدار موجها كلامه إلى حسن سليمان: ولعلمك يا أستاذ حسن أنا أفهم فى الفن التشكيلى ربما أكثر من كثيرين ممن يدعون هذا- يقصد الأستاذ حسن سليمان بالطبع-- وفهمها الأستاذ حسن سليمان.

واستأنف الأستاذ فؤاد قائلا: نحن نفهم فى الفن ونزور المعارض ونقرأ عن الفن ونكتب عنه.. والثقافة يا أستاذ حسن لعلمك ليست أن تمسك الفرشاة وترسم.. لكن الثقافة أن تتمرس فى كل أنواع الفنون .. وعيب أن تصفنى بأننى أتحدث مثل بائعة الجبنة.

ورد حسن سليمان مدافعا عن نفسه: وهذا الكلام الذى تقوله مامعناه؟ وهل أنا أسيء اختيار الاغلفة للمجلة؟

وهدأ النقاش قليلا لكن الأستاذ يحيى حقى الساخر دائما وابن النكته وابن البلد لم يترك الفرصة تفوت.. وكنت أجلس إلى جواره مباشرة فمال نحوى هامسا بينما كانت المناقشة محتدة وقال؟ يعجبك هذا الجنان؟ طيب!

وما إن هدأت المناقشة حتى قال الأستاذ يحيى حقى وكأنه يشعلها من جديد: لكن حقيقى عيب يا أستاذ حسن أن تقول على الاستاذ فؤاد أنه بيبيع جبنة!! وابتلع حسن سليمان الطعم فقال مندفعا: طبعا أقول مادام يقول كلاماً يغيظ.

وتحفز الأستاذ فؤاد دوارة للرد .

ولم يدع الأستاذ يحيى حقى الفرصة لتفوت مرة أخرى.. فقال: انت أيضا يا استاذ فؤاد لايمكن أن تنكر إن الاستاذ حسن سليمان فنان مشهور وعالمى ولوحاته فى كل أوربا.

واشتعلت المناقشة من جديد.. بينما الأستاذ يحيى حقى يغالب ضحكته ويكتمها ويخفيها.. أما أنا فكنت أعلم بالمقلب الذى دبره للاثنين حتى يتوبا عن هذا «النقار» الذى كان يتكرر مع كل غلاف مجلة!!

سؤال فى الشاى !

فى التليفون باغتنى الأستاذ يحيى حقى بسؤال لم أتوقعه وكان مفاجأة كاملة لى!

قال: هل الشاى أنواع؟

قلت: طبعا.. حضرتك عارف.. فى الهندى والسيلانى والكينى و..

قال مقاطعا: لأ..لأ .. ما أقصدش كده.. أقصد الشاى الذى يشربه الناس على القهاوى.. أنواع؟

قلت: آه.. طبعا يا أستاذ يحيى.. فى شاى فرسكا وشاى مصرى وشاى كشرى وشاى ميزة وشاى حليب بوستة..

قال: ما هذا كله؟.. اسمع.. ذكرنى أن نتناقش فى هذا بالتفصيل وليكن اليوم أرجوك! وأغلق السماعة.

وذكرته فى طريق عودتنا من المجلة بالموضوع الذى كان يسأل عنه فى الصباح.

قال: آه طبعا.. يبقى لازم حتيجى معاى البيت نشرب فنجان قهوة وتكمل كلامك...

وفى البيت جلست أشرح للأستاذ يحيى وفى ذهنى يدور معنى واحد.. أنه لابد يعد لعمل جديد ولابد من تفصيلات.. فكيف لهذا الدبلوماسى الكبير أن يجلس على مقهى بلدى ويسأل عن أنواع الشاى؟!

وشرحت له الفرق بين الشاى المصرى والفرسكا الخفيف والميزة.. قال: ميزة؟! لماذا؟! قلت: لأنهم يميزونه بأضافة الحليب اليه. سأل: والكشرى؟ قلت لأنه ليس شاياً مغلياً والفرق بينه وبين الشاى المغلى هو أنه يوضع فيه الشاى الجاف على الماء.. ويقولون أيضا: شاى على ميه بيضاء!

قال: آه شاى ميزة من «الميزة» يعنى التمييز.. وما هذا الحليب بوستة؟ قلت: لأنه ليس شاى بحليب يأتيك جاهزا .. ولكنه شاى سادة والحليب يأتى فى رسالة منفصلة فى إناء صغير دقيق فكإنها رسالة حليب..

قال بإعجاب شديد: يا أخى المصرى ده إنسان حساس جدا وشاعر أيضاً.. تأمل تسميائه المختلفة لشيء واحد مثل الشاى.. هذا شيء لا تجده فى أى مكان فى الدنيا إلا فى مصر.

أوامر يا يحيى بك!

بعد نكسة يونيو عام ٦٧ حدث تعديل وزارى جاء فيه الدكتور ثروت عكاشة وزيرا للثقافة بتعليمات محددة في ضغط المصروفات.

وبلغتنا التعليمات بالطبع.. وكان على الأستاذ يحيى حقى رئيس التحرير أن يضغط مصروفات المجلة.. ولم تكن مصروفات المجلة تزيد على كشف مكافآت كتاب العدد من كتاب وفنانين وخطاط وما إلى هذا .

وقالوا في تعليماتهم المرسلة إلينا من دار الكاتب العربى التى أصبحت المجلة تتبعها أن ميزانية المجلة في كشف المكافآت يجب ألا تتجاوز مائة جنيه!

وخبط يحيى حقى كفاً بكف ..وبهتناجميعاً.. مائة جنيه؟! كيف؟ كم نعطى مثلا للأستاذ الدكتور جمال حمدان على مقال يشغل من المجلة ملزمة ونصف ملزمة عن دراسة فى شخصية مصر.. التى ولدت فكرتها في المجلة على يدى الأستاذ يحيى حقى؟!.. وكم يعطى مثلا إبراهيم أبو سنة أو فاروق شوشة عن قصيدة شعر؟ و كم يعطى كاتبا مثل بهاء طاهر وعبد الحكيم قاسم؟ كم يعطى أستاذاً ودبلوماسيا وسياسيا مثل حسين ذو الفقار صبرى على مقالاته التى يكتبها عن ٦٧؟!

أكثر من مكالمة تليفونية أجراها الأستاذ يحيى حقى مع الدكتورة سهير القلماوى رئيس مجلس إدارة دار الكاتب العربى فى ذلك الوقت يرجوها أن ترفع المكافأة ..فتعتذر هى بأن هذه هى الأوامر.. بينما هى تعلم قيمة الأساتذة والكتاب والفنانين الذين يتحدث عنهم.. لكنها الأوامر يايحيى بك!!

جلسنا نكتب مكافأة العدد.. يسأل يحيى حقى وأجيب من واقع فهرس المجلة.. فلان؟ فيقول: اكتب ٣٠ جنيها .. وفلان؟ خمسة عشر.. وفلان؟ اثنتاعشر... وفلان؟ عشرة

... وهكذا .. ثم نجمع الحسبة فنجدها قد تجاوزت المائة بكثير.. فيقول يحيى حقى معتذرا: معلهش.. هات ورقة ثانية.. ونبدأ الحسبة من جديد... ويظل يضغطها مرة .. ومرتين.. وثلاث مرات.. ثم يصرخ فى النهاية :مش قادر أكتر من كده.. حرام يا ناس.. ثم يلتفت نحوى قائلا بعد أن يكون هدوءه قد عاد إليه: معلهش .. اطلب لى الأستاذ صلاح عبد الصبور- مستشار النشر فى ذلك الوقت - ويكلمه.

ويتعاطف معنا الأستاذ صلاح عبد الصبور بشدة ويقول للأستاذ يحيى حقى: أنا معك.. سأحاول أن أكلم الدكتورة.. أرسل الكشف.. نحن آسفون والله يا أستاذ يحيى.. ويكررها أكثر من مرة.

ويعتذر الأستاذ يحيى حقى وكأن الخطأ خطأه لكل كتاب المجلة واحدا واحدا.

يعتذر للأستاذ حسين ذو الفقار صبرى.. ويقول الأستاذ حسين ذو الفقار: أنا فاهم يا أستاذ يحيى.. الذنب ليس ذنبك.. نحن لسنا فى حاجة للمكافأة.. نحن يشرفنا أن نكتب معك مجاناً!

يقول الأستاذ يحيى حقى: يا أستاذ حسين هذه المكافأة تقدير من المجلة لجهدك.. كيف أساوى جهدك بهذا المبلغ التافه؟

ويعتذر للدكتور جمال حمدان: ويقول الدكتور جمال حمدان : أنا أعلم هذا.. أنا يكفينى شرفاً أن أكتب فى مجلة الأستاذ يحيى حقى.

ولايفوت الأستاذ يحيى حقى أن يعتذر للشباب أيضا الذين نالهم من مكافأة على نشر قصصهم أو أشعارهم فى المجلة خمسة جنيهات.. أو ثلاثة جنيهات فيقولون نفس الشيء: يا أستاذ يحيى نحن يكفينا أنك تتبنانا وتهتم بنا وتدافع عنا.. نحن وإن كنا فى حاجة إلى هذه المكافاة إلا أننا نتنازل عنها بكل سرور من أجل أننا نأخذ تأشيرة المرور إلى قلوب الناس من يدك..

ولم يسكت يحيى حقى.. وطلب منا أن نطلب له موعدا مع الوزير ثروت عكاشة لكى يشكو إليه معاونيه ويستأذنه فى أن يستثنى المجلة من ضغط المكافآت.. فالمسألة برمتها لا تساوى ٥٠ جنيها هى كل الفرق.

وذهبنا الى الوزير ثروت عكاشة الذى استقبل الأستاذ يحيى حقى استقبالا حميما رائعا وقال له: يا أستاذ يحيى أنا أكثر من يعلم مشكلتك ويحس بها.. لكنها أوامر الرئيس عبد الناصر شخصيا أن نضغط المصروفات فى كل وزارات ومصالح الدولة.. ثم أضاف: البلد يا أستاذ يحيى كما تعلم محتاجة أن تعيد بناء نفسها.. القوات المسلحة لابد أن تبنى من جديد.. أنا أعلم أن ما تدفعه للكتاب -كبارا أو صغارا أو مفكرين أو مثقفين- شيء مخجل.. لكن علينا جميعا أن نحتمل حتى نعبر هذه المرحلة بسلام.

وهكذا كانت المشاكل تمر بقلب يحيى حقى الحساس.. وهكذا كانت مشاكله مع الإدارة وهو الفنان.. عانى منها فى مصلحة الفنون.. وعانى منها فى مجلة المجلة.. ولهذه المشاكل مع الأستاذ يحيى حقى حكاية أخرى سيأتى ذكرها فى حينها.

آخر الظرفاء!

على ناصية رمسيس مع شارع ٢٦ يوليو أمام مبنى الشهر العقارى التقينا -الأستاذ يحيى حقى وأنا -ببعض أقاربه.. وبعد السلام والسؤال عن الصحة والأهل والأقارب قدمنى لهم كعادته دائما.. قال : ابنى سامى سكرتير تحرير المجلة وذراعى اليمين...

ولاحظت خلال الحديث أن الأستاذ يحيى يدور بين أقاربه ويقترب منهم ويشد قامته بينهم بشكل لافت للنظر ..ثم سلم وانصرفوا وانصرفنا.

وفى الطريق إلى المجلة قال: أخذت بالك؟

قلت: من أى شيء؟

قال: لست قصيرا كما تظنون! هل لاحظت أننى أطول منهم؟ ثم ضحك وأضاف: أنا أطول واحد فى العيلة.. واستغرق فى ضحكة جميلة!

قلت: ماعاش اللى يقول عليك كده يا أستاذ يحيى..

قال بسرعة: بعد الشر.. اوعوا تفتكروا إن أنا زعلان.. بالعكس أنا بأبقى سعيد جدا.. يالله بينا نشرب قهوة قبل ما نروح المجلة.

ومضينا إلى محل البن البرازيلى بشارع سليمان لنشرب القهوة قبل أن نبدأ يوم عمل جديد..

كناسة الدكان !

سلمنى الاستاذ يحيى حقى رئيس تحرير المجلة مقاله الافتتاحى وكان آخر المواد التى تكتب فى العدد.. وأوصانى به خيرا قبل سفره فى إجازته الصيفية.. وسألنى أن أراجعه بعد مراجعة المصححين لتنقيته من أى أخطاء..

وقرأت المقال الافتتاحى أكثر من مرة حتى جاء خاليا تماما من الخطأ.. وبعد أن انتهى العمل فى المجلة عدت إلى المكتب ومعى نسخة من العدد الجديد فخورا به لأن مقال رئيس التحرير قد جاء بالشكل الذى يحبه ويرجوه.. لكننى عند عودته من الاجازة فوجئت بعاصفة من غضب يحيى حقى تستقبلنى ..وهو الذى لم يظهر الغضب لمخلوق فى حياته!

قال الأستاذ يحيى فى سورة غضبه: إيه اللى أنت عملته ده ياسامى؟! ..كده يا ابنى تضحك على مصر كلها؟

سألته مندهشا: خير يايحيى بك؟!

وقد ظننته يضحك أو يحيك مقلبا على سبيل المرح والدعابة.. ولم أكن أعرف أن المسألة جد وجد جداً أيضاً!

قال: كناسة الدكان يا ابنى؟! كناسة ؟!!

أدركت أنه يقصد عنوان مقاله الافتتاحى.. قلت: أيوه يا أستاذ يحيى.. وفيها إيه؟

قال: يا ابنى كناشة.. ألا تفهم الكناشة؟!

قلت ودهشتى تزيد: كناشة؟! يعنى إيه ياأستاذ يحيى؟! إيه الكناشة دى؟!

قال: يا أبنى الكناشة .. الدفتر.. دفتر الدكان اللى بيقيدوا فيه اللى اتباع واللى ما اتباعش.. المكسب والخسارة.

أجبت: يا أستاذ يحيى أنا ما أعرفش كناشة.. وأول مرة أسمع عن الكنّاشة دى..

قال: طيب انت قرأت إيه فى العنوان؟

قلت: قرأت كناشة لكن تصورت أنها غلطة أو نقطة حبر فصلحتها لك كناسة!

قال: لا إله إلا الله .. لا إله إلا الله.. معلهش حصل اللى حصل.. المهم انهم ضحكوا علياً وخلاص!..

المهم والغريب أنه بعد انقضاء ثلاثين سنة على هذه الحكاية تصدر هيئة الكتاب مجموعة مقالات يحيى حقى الافتتاحية فى المجلة تحت العنوان الذى اخترته أنا «كناسة الدكان».. واتضح لى أن الجميع لايعرفون الفرق مثلى بين الكناسة.. والكناشة!!

هناك .. وهنا !

دخلت يوما على يحيى حقى مرتديا نوعاً من الچاكت كاكى اللون له سوستة كبيرة واسبلايت على الكتفين وأربعة جيوب « باجى» منفوخة وأزرار بنية ضخمة وأساور فى نهايةالأكمام.

سألنى الأستاذ يحيى حقى قائلا: حلو قوى ده ياسامى جايبه منين؟ فحكيت له الحكاية.. قلت: الچاكت ده اختاره الفنان حسن سليمان.. فاتسعت عيناه دهشة وقال: وبعدين ؟ قلت: كنا ماشيين فى شارع شريف وأمام أحد المحلات توقفنا وأشار الأستاذ حسن سليمان إلى الڤاترينة فجأة قائلا: هذا الجاكت أنا كنت رأيته فى شارع تجارى مهم فى باريس.. ادخل اشتريه ياسامى على طول أنت شاب.. ثم أضاف بحماس: أنا لو فى سنك كنت اشتريته فوراً .. ولم أكذب أنا خبراً فدخلت اشتريه.

قال الأستاذ يحيى: فعلاً.. فعلاً.. أنا شفت الشباب فى باريس بيلبسوا حاجات زى كده بس يا ابنى هم هناك كلهم كده لكن فى مصر؟! يعنى!! مش مهم! عندنا أيه النهارده؟ وبد أنا يوم عملنا بالشكل المعتاد.. وفى ختام اليوم سألنى الأستاذ يحيى حقى إذا كان وقتى يسمح أن أمر فى طريقى للبيت على منزل الأستاذ أبو الفضل إبراهيم محقق التراث المعروف.. وطلب منى أن أحضر منه مقالا كان قد اتفق معه عليه.

ووافقت بالطبع .. وفى طريقى إلى منزل الأستاذ أبو الفضل إبراهيم أمطرت السماء وكان يوما شتويا شديد المطر غرقت فيه تحت المطر وأصبحت فى أسوأ حال... .

وسألت على البيت حتى استدللت عليه.. وصعدت على السلم ونقرت على زجاج الباب فانفتحت الشراعة وأطلت منها فتاة صغيرة لعلها الشغالة ..سألتنى: ماذا تريد؟ قلت: أسأل على الأستاذ أبو الفضل إبراهيم.. قالت: موجود! قلت: أخبريه أننى من طرف

الأستاذ يحيى حقى وجئت بخصوص المقال.. فقالت: انتظر وأغلقت شراعة الباب.. وانتظرت فترة ثم فتحت الشراعة وأطل منها الأستاذ أبو الفضل إبراهيم وسألنى: ماذا تريد؟ قلت: أنا جاى من طرف الأستاذ يحيى وجئت بخصوص المقال الذى كلمك عنه.. فقال: آه فعلا: انتظر.. لاتمش.. وأغلق الشراعة.

وانتظرت فترة لعلها كانت ربع ساعة.. ثم فتح الباب ودفع لى الاستاذ ابو الفضل من فتحة الباب الموارب مظروفاً أصفر قديماً بداخله المقال.. واستدرت منصرفا لكننى سمعته يقول: انتظر.. فانتظرت..ولا أعرف فيم كان انتظارى.. وأغلق الباب وغاب ثم عاد ومد نحوى يدا مطبقة وقال: خذ! قلت: ماذا؟ وقد بدأت الريبة تتسلل إلى نفسى! قال: امسك! قلت: أمسك ماذا؟ فوضع فى كفى ورقة عملة بخمسة قروش، وقال: مواصلاتك! أردت أن أفهمه بشكل لائق أننى لست ساعيا فى المجلة وإنما أنا سكرتير تحريرها!

قلت: أنا مقيم خلفك مباشرة يا أستاذ أبو الفضل لا أحتاج الى مواصلات! قال: اشرب بها شاى إذن! قلت: ولا أشرب الشاى.

قال: خذها وخلاص.. قلت: يغضب منى الأستاذ يحيى حقى.. قال: لا عليك من الأستاذ يحيى.. أنا سأكلمه .. ثم دخل وأغلق الباب فى وجهى!

نزلت السلم ودمى يغلى وفى نيتى أن أعاتب الأستاذ يحيى حقى عتاباً شديداً على فظاظة هذا الرجل الذى أرسلنى اليه!!

وفى اليوم التالى كنت فى المجلة مرتديا بذلة كاملة وكرافتة أقف أمام الأستاذ يحيى حقى أشكو له حادث الأمس! وفى منتصف النهار تصادف عندما دخلت مكتب الأستاذ يحيى حقى فى إحدى المرات أننى رأيت الأستاذ أبو الفضل إبراهيم يجلس مع الأستاذ يحيى حقى يتحدثان فى بعض أمور التراث.

والتفت الأستاذ أبو الفضل نحوى نظرة عابرة.. ثم اعتدل مواصلا الحديث مع الاستاذ يحيى حقى.. لكنه وكأنما تذكر شيئا التفت نحوى بشدة.. وفهم الأستاذ يحيى حقى ماذا يريد فقال: نعم هو الذى كان عندك بالأمس!

قال الدكتور أبو الفضل مرتبكا : لكن .. لكن ..

وضحك الأستاذ يحيى ضحكاً متواصلا حتى اجتمع الجميع على صوت ضحكه .. وقال : يا أستاذ أبو الفضل اسمح لى أعرفك .. الأستاذ سامى فريد ابنى وسكرتير تحرير المجلة وذراعى اليمين اللى أنت امبارح أعطيته الشلن!

قال الأستاذ أبو الفضل معتذرا: والله أنا أصلى .. كان ..آه إنما .. ربما .. فقلت على الفور: نعم .. بسبب الجاكيت .

فبادر الأستاذ يحيى حقى قائلا : أنا كنت عارف إن حسن سليمان حيغرقك .. استلم بقى .. على كل حال ماترجعش الشلن .. حطه فى برواز فى البيت .. يا ابنى ده إنت بكره تفتكر الحكاية دى وتضحك!

وضحكنا .. وضحكت معنا كل أسرة المجلة فى ذلك النهار!!

قنديل أم هاشم

دخل علينا ذات صباح الأستاذ فؤاد دواره يرحمه الله.. وقال بعد أن جلس موجها كلامه للأستاذ يحيي: مبروك يا أستاذ يحيي! فقال يحيي حقي مستفسرا: الله يبارك فيك.. خير؟

قال فؤاد دوارة: أنا أصلي لسه جاى من مؤسسة السينما.. مبروك.. اختاروا لك قنديل أم هاشم تتحول فيلم ورشحوا لها المخرج كمال عطية.

قال يحيى حقى وهو يدير الاسم على لسانه: كمال عطية؟ كمال عطية؟ أظن كمال عطية ده يا فؤاد مسيحي.. مش كده؟.

وقال فؤاد دوارة: أظن كده يا يحيي بيه!

واستطرد يحيي حقي: لكن تفتكر يا فؤاد أنه ممكن يحس بالمقام يعني والملامح الدينية والجو النفسي والوجداني في القصة؟

قال فؤاد دوارة: يا أستاذ يحيي ممكن حضرتك تتكلم معاه وتوضح له ده وتسأله وتستفسر منه.. وإذا لقيته مش حيقدر يحس بده كويس ممكن تروح المؤسسة وتقول لهم ملاحظاتك.

قال الأستاذ يحيي حقي: طيب.. أنا عايز مقابلة مع الأستاذ كمال عطية.. وسأطلب منهم إني أقعد معاه ونتكلم.

وحدث أن جاء الأستاذ كمال عطية إلى المجلة وجلس جلسة مطولة مع الأستاذ يحيي

حقى، خرج بعدها الأستاذ يحيى راضيا وقال لنا أنه أحس أن الأستاذ كمال عطية يتمتع بفهم شديد للعمل ولروح العمل والجوانب النفسية والدينية فيه.

وبعد أن خرج الفيلم إلى النور كان الأستاذ يحيى دائم الإشادة بالمخرج كمال عطية وبوعيه.. وقال مرة ضاحكا: يمكن والله من بختى أن جاء المخرج مسيحيا علشان يدقق فى العمل قوى خوفا من الحساسيات .. المهم الشغل طلع كويس ..مش كدة ولا إيه؟ وضحك فى سعادة غامرة..

كانت المرة الأولى والأخيرة أيضا التى ألتقى فيها بالأديب الراحل الأستاذ محمد عبد الحليم عبد الله فى المجلة قبيل سفره إلى بغداد لحضور أحد الاحتفالات الأدبية هناك.

وفى المجلة- التى كانت بمثابة صالون لكل أدباء مصر- جلس الأستاذ محمد عبد الحليم عبد الله بيننا يداعبنا بمرحه المعروف.. فأضفى على مجلتنا جواً من المرح والسعادة ..وقبل أن يغادر المجلة قال وهو يجلس على حافة مكتب الأستاذ فتحى رضوان ..وكان مكتبا عتيقاً ضخماً رفض الأستاذ يحيى حقى الجلوس اليه فأزحناه فى ركن بالغرفة.

جلس الأستاذ عبد الحليم على حرف المكتب ونفش صدره وقال متباهياً فى مرح: انا مسافر بغداد بكره فى الطائرة فى الدرجة الأولى ودى مش لأى حد .. دى للأدباء الكبار اللى زيى بس.. مش للأدباتية الصغيرين اللى زيكم!

وضحكنا جميعا وكان بيننا الأستاذ فؤاد دوارة ويوسف الشارونى ومجموعة من الأدباء والشعراء الشبان فى ذلك الوقت.

ثم نزل من على حافة المكتب وقال مستدركا: ماعدا عمنا يحيى بك طبعا دا فوق الروس.

وضحك الأستاذ يحيى حقى..

وسأله الأستاذ عبد الحليم قبل أن ينصرف إن كان يريد شيئاً من بغداد؟!

قال الأستاذ يحيى وهو يشيعه بابتسامة: إن قدرت تعمل لنا رسالة من هناك ابقى ابعتها.. يبقى كتر خيرك.

وقال الأستاذ عبد الحليم: إن شاء الله.. ثم سافر.. ولم أره بعد ذلك حتى قرأت فى الصحف مثلما قرأ غيرى عن حادث وفاته المشئوم بسبب اهانة سائق أرياف بينما كان فى طريقه لركوب الاتوبيس إلى القاهرة..

ولم تحتمل كرامة الأديب الكبير الاهانة فودع الحياة..

كده غلط!

أثناء إحدى إجازات يحيى حقى الصيفية فى فرنسا حضر إلى المجلة مندوب من مؤسسة السينما يحمل الشيك الخاص بمكافأة يحيى حقى عن قصة البوسطجى التى تحولت إلى فيلم.

قلت للمندوب : الأستاذ يحيى حقى مسافر فى فرنسا.. فقال: وماله.. استلم انت الشيك!

ونصحنى زميلى رأفت فصيح أن أستلم الشيك لأن عدم استلامه يعنى أننا سنبذل جهداً كبيرا فى إعادة استصداره من المؤسسة مرة ثانية بعد عودة الأستاذ يحيى حقى من الخارج.

وأستلمت الشيك ووضعته فى درج المكتب ثم نسيته.. إلى أن سألنى الأستاذ رأفت فصيح ذات صباح: أخبار الشيك اللى معاك إيه؟ فقلت: اشوفه.. أنا وضعته فى الدرج من يوم ما استلمته! فقال رأفت::شوفه.. ليكون ميعاد صرفه انتهى.

وأخرجت الشيك من الدرج وقرأته.. وللمصادفة الغريبة كان ذلك اليوم هو آخر يوم فى استحقاق صرف الشيك.

وقال رأفت على الفور إنه لابد من صرفه الآن.

قلت: لكن أليس هذا خطأ يا أستاذ رأفت! قال: وهل من بديل آخر؟! الحل البديل هو أن أذهب أنا - يعنى هو- إلى وزارة الثقافة فى إمبابة لاعادة الشيك وإلغائه إلى أن يعود الأستاذ يحى حقى من فرنسا.. فنبدأ إجراءات جديدة لاسترداد الشيك مابين ديوان الوزارة فى إمبابة ثم فى الدقى ثم فى مؤسسة السينما.. وكانت فكرة رأفت فصيح أنه لابد من

صرف الشيك حتى نقفز فوق كل هذه الإجراءات الروتينية التى تعطل استرداد الشيك.. وحتى يعود الأستاذ يحيى حقى من فرنسا لنرحمه من جملة مشاوير لابد أن يمر بها هو شخصياً حتى يستطيع صرف الشيك!!

وسألنى رأفت: ألست تستطيع تقليد إمضاء الأستاذ يحيى حقى؟ فقلت: نعم.. وقد فعلت هذا كثيرا أمام الأستاذ يحيى حقى نفسه عندما كان يطلب منى توقيع بعض مراسلاته وخطاباته نيابة عنه أو ردوده على بعض المراسلات الحكومية.

قال رأفت: افعل هذا إذن.. وقع الشيك باسم يحيى حقى ..ثم وقع تحته باسمك ثم أرسله مع ساعى المجلة شعبان البرعى مع بطاقتك لنصرفه فى الحال.

قلت متردداً: لكن يا رأفت!

قال رأفت : لا تخش شيئاً.. نحن لسنا لصوصاً .. الأستاذ يحيى حقى يعاملنا كأبنائه ومن حقه علينا أن نساعده.

وقد فعلت.. وعاد شعبان من البنك يحمل إلينا ٥٠٠ جنيه تنقص جنيها واحداً رسم الدمغة..

ووضعت النقود فى درج المكتب.. لكن الأستاذ رأفت نصحنى بأن آخذ النقود معى إلى البيت خوفا من ضياعها.. فحملت النقود معى إلى البيت ووضعتها فى مكان أمين حتى يعود الأستاذ يحيى حقى من رحلته فى فرنسا.. ثم نسيت الأمر كله ونسيته زوجتى أيضا.. وكنت قد طلبت منها أن تذكرنى بالمبلغ عند عودة الأستاذ يحيى حقى من فرنسا.

وعاد الأستاذ يحيى حقى من فرنسا.. ومرّ يوم.. ويومان وثلاثة أيام وأثناء فتح البوستة الجديدة سألنى الاستاذ يحيى حقى: ألم تصلنى أى بوسطة فى غيابى؟ قلت: كثيرة جداً.

قال: قل لى ما أهمها.. فتذكرت الشيك على الفور.. فقلت: لك عندى أمانة يا أستاذ يحيى! قال: ماهى ؟ قلت: مبلغاً من المال.. شيك عن فيلم «البوسطجى» استلمته نيابة عن حضرتك.

سألنى الأستاذ يحيى: أين الشيك؟

قلت: صرفته!! فاتسعت عيناه دهشة.. فقلت أطمئنه: النقود معى لكنها فى البيت.

قال: هاتها معاك إذن غداً.

فى الغد كنت أحمل إليه ٤٩٩ جنيها.. أخذها منى دون أن يعدها ووضعها فى جيبه.. ثم سألنى: كيف صرفت الشيك؟

قلت: وضعت أمضاءك عليه! قال: كده ببساطة؟! ثم أضاف: يا ابنى كده غلط!.. تصور مثلا لو أن البنك شك فى إمضائك!.. تصور لو أن المبلغ سرق منك.. كيف كنت ستتصرف؟.. أرجوك لا تفعل هذا مرة ثانية!

قلت: يا أستاذ يحيى نصحنى بهذا الأستاذ رأفت .

وجاء الأستاذ رأفت ليؤمن على كلامى وقال: يا أستاذ يحيى كنا سنجرى أجراءات كثيرة نخشى عليك من تعقيدها وبطئها وطولها .. ولهذا قمنا بهذه المخاطرة من أجلك أنت!

وعادت الأبتسامة إلى وجه الأستاذ يحيى حقى مرة أخرى...

تقرير سنوى !

كانت المجلة تضم عدداً من الموظفين يتبعون أكثر من جهة حكومية .. فمنهم من كان يتبع مصلحة الآثار مثل الزميل الأستاذ كمال ممدوح حمدى.. وكان يقضى فترة خدمته العسكرية فى القوات المسلحة وقت أن عينت أنا فى المجلة منتدباً من مصلحة الاستعلامات التى تُبعت لها إدارة المجلات الثقافية بالقرار الجمهورى فى ذلك الحين.. وكان منهم من يتبع ديوان عام وزارة الثقافة.. وكانت التقارير السنوية تأتى إلينا من جهة أعمالنا الأصلية فكان الأستاذ يحيى حقى يعطيها لنا لنملأ بياناتها بشرط ألا نكتب فى تقديرنا النهائى مائة فى المائة.. وكانت وجهة نظره أن الحكومة مستحيل أن تصدق أن أحد موظفيها يمكن أن يبلغ درجة الكمال.. فكان يوصى بألايتجاوز التقدير ٩٩ فى المائة!

وكنا إذا انتهينا من كتابة تقاريرنا السنوية السرية يسألنا قبل أن يوقع عليها: كم؟ فنقول ٩٩ فى المائة.. وهكذا!

وحدث أن حولت إلينا وزارة الثقافة أحد وكلائها فى ذلك الوقت.. وعلمنا أن سبب نقله إلينا أنه كان مبعداً من الديوان ليقضى ما تبقى له من فترة عمله فى الحكومة عندنا.. وأفهمنا هذا الأستاذ يحيى حقى وطلب منا أن نحسن معاملته .. وللأمانة فقد كان الرجل موظفاً بحق. يأتى قبلنا وينصرف بعدنا.. ولم يكن له دور محدد فى عملنا بالمجلة فكان الأستاذ يحيى حقى يدفع إليه ببعض المقالات لمراجعتها أو ببعض الترجمات لإبداء رأيه فيها.. وكانت وصية وكيل الوزارة هذا لنا بألا نجلس بدون عمل حتى لا يغضب منا الاستاذ يحيى! .

وحاولنا أن نفهمه أن عملنا يتصل بإعداد المجلة للطبع واختيار المادة ومتابعة الرسوم

والماكيتات والتصحيح والشكل النهائى للمجلة ومتابعتها مع الكتاب ومستشارى المجلة وهيئة التحرير إلى آخر هذه الخطوات.

فكان اذا دخل علينا ووجدنا نتكلم أو نقرأ بعض المقالات أو نتحدث فى التليفون يطلب منا أن نضع أمامنا بعض الأوراق ولو خالية حتى لايرانا الأستاذ يحى حقى بدون عمل.

ونقلنا إلى الأستاذ يحيى حقى هذه الواقعة.

فصرخ فينا: إياكم أن تعملوا كده.. أنتم فاكرين نفسكم موظفين ولا إيه؟لأ.. لأ.. قولوله حاضر ولاتعملوش أى حاجة!

وفهمنا روح الاستاذ يحيى حقى فى العمل.. حتى ولو كان فى الحكومة!

وضحكنا جميعا من وكيل الوزارة عبد الروتين!

الهرم.. نجيب محفوظ!

جلسنا عقب إحدى إجازات الأعياد نقرأ البريد الذى تراكم فى تلك الفترة.. كنت أقرأ له البريد وهو ينصت فى اهتمام شديد.. وبدا بعد فترة أنه متلهف إلى رسالة معينة فى البريد أو بطاقة بعينها.. حتى وقعت يدى على بطاقة من الأستاذ نجيب محفوظ يهنىء فيها الأستاذ يحيى حقى بالعيد ويتمنى له الصحة .. فارتاحت ملامح يحيى حقى حتى أنه لم يكن راغبا فى سماع باقى الرسائل!

وبعد أن انتهينا قال لى الأستاذ يحيى حقى متأملا: تصور.. فى البداية بعد ما افترقنا أنا ونجيب محفوظ فى مصلحة الفنون وذهب هو الى عمله الجديد كان يأتى لزيارتى بشكل منتظم.. ثم تباعدت الزيارات لتحل محلها التليفونات فى مواعيد معلومة.. وكنت اسمع التليفون فكنت أعرف أنه نجيب محفوظ.. ثم انقطعت التليفونات وبدأت مرحلة المعايدات والبطاقات.. حتى هذه – قالها الأستاذ يحيى بحزن حقيقى– أصبحت يوم آه ويوم لأ.. مناسبة آه.. ومناسبه لأ.

قلت من فورى مهوناً عليه: يا أستاذ يحيى اللى يبعت يبعت واللى مايبعتش.. مايبعتش!

فغضب الأستاذ يحيى حقى منى غضباً حقيقياً وقال: إزاى تقول كده؟ يا ابنى الأستاذ نجيب محفوظ ده هرم من أهرامات مصر.. زيه زى هرم خوفو ويمكن أكبر .. وأنا متوقع له فى يوم من الأيام إن شاء الله لو فيه إنصاف أنه يأخذ جائزة نوبل لأنه يستحقها.. إنما إنى أنا أزعل منه أو ما أزعلش فدى مسألة خاصة بى أنا وحدى بس وبحبى له.

وتعلمت من يحيى حقى درساً.. أن أكون موضوعياً فى الحكم على الناس والأشياء.

أخاف عليكم!

كان عملنا الحقيقى فى المجلة يبدأ بوصول الأستاذ يحيى حقى.. لكننا كنا أحيانا نتلقى منه تليفونا من المنزل يقول فيه ببساطته وابتيسامته المعروفة: ياولاد أنا قاعد فى البيت النهاردة شوية.. إذا كنتم عايزين تروحوا .. روحوا.. وإذا كان عندكم حاجة عايزين تقولوها لى.. قولو هالى.. فكان منا من ينصرف ومنا من ينتظر.. وهكذا..

كان يحيى حقى لفرط أدبه ورقته وحنانه أيضا لايريد أن يحبسنا داخل إطار العمل الحكومى.. فكان يترك لنا تقدير الأمور بشرط: أن نحسن عملنا فى النهاية.

.. ومع يحيى حقى لابد أن تحس دائما أنك ابنه وأنه رب الأسرة .. لكنه رب أسرة صديق!

فى بداية عملى معه جلست ذات صباح إلى مكتبى أتناول الإفطار.. وكان سندويتشاً من الفول بالبيض.

وعلى غير المتوقع دخل علينا الأستاذ يحيى حقى يلقى علينا تحية الصباح.. فرآنى وأنا أفطر فى مكان العمل.

دخل الأستاذ يحيى حقى حجرتنا فألقيت بالساندويتش فى درج المكتب.. فاقترب منى وقال: ما هذا؟

قمت واقفا وقلت: لاشىء! قال: افتح المكتب.. ففتحت المكتب فأخرج الساندويتش: وقال ما هذا؟

قلت: ساندويتش فول بالبيض! فقال بنبرة الأب: هو إنت مابتفطرش فى البيت يا سامى؟

قلت: لأ.. قال: لماذا؟ إنت مش متجوز؟! قلت: نعم! قال: ولماذا إذن لاتفطر فى البيت؟ قلت: لايسعفنى الوقت!

تغيرت نبرته وقال بنبرة الأب الحنون: يا ابنى بس ده ممكن يكون ملوث وممكن مايكونش نظيف.. أنا أخاف عليك تمرض!

قلت: يا أستاذ يحيى المحل نظيف جدا أمام المجلة.. بص حضرتك من البلكونة تشوفه!

وذهبنا إلى البلكونة وأطل الأستاذ يحيى حقى على الشارع.. وأشرت إلى المحل فقال: آه عارفه دا محل ايزائيفتش.. دا نظيف جداً..

ثم التفت نحوى قائلا: اذا كان نظيف يا سامى من فضلك هات لى ساندويتشين زيك بالظبط فول بالبيض.. فقلت ضاحكا: هو إنت يا أستاذ يحيى مافطرتش.. قال: لأ.. فطرت.. بس نفسى آكل زيكم.. نفسى يا أخى آكل فول بالبيض.

واسرعت احضر له ساندويتشات الفول بالبيض!

رقص الجواري !

سألني الأستاذ يحيى حقي ذات يوم. هل تحب الرقص الشرقي ياسامي ؟ قلت: نعم! قال وهو يتمسك بحبال الصبر: لماذا؟ قلت: جميل فيه حيوية وأنوثة واعتزاز المرأة بجمالها وبقوامها.. وأضفت متفلسفا:: ثم هو تحدى للجاذبية الأرضية وانطلاق مع الفرحة!

واستمع لى الأستاذ يحيى منصتا باهتمام شديد ثم رد بهدوء فى البداية.. منفعلا بعد ذلك: تتفرج على واحدة ست عريانة ياسامى بتهز جسمها وتفتكر ده فن ؟!

ولم أجب! فقال: يا ابنى الرقص ده رقص جوارى.. رقص قصور! الست ترخص نفسها امام سيدها اللى اشتراها بفلوسه عشان تغريه وتخاطب غرائزه.. بتعامله كأنه حيوان.

واستطرد يشرح لى: تعرف الرقص ده اسمه إيه؟ الرقص ده مش هو الرقص الشرقى .. ده اسمه هز البطن؟ فين ده يا ابنى من الباليه الرقيق.. من الرقص التعبيرى؟ حتى رقص الفراعنة كان رقصا راقيا.. دا يا ابنى رقص دخيل علينا جابوه المماليك.. دا رقص كله شهوانية وحيوانية.. ارجوك يا سامى جرب مرة واحدة تشوف الباليه .

واستمعت لنصيحة الأستاذ يحيى حقى.. وبدأت أشاهد عروض الباليه وأحاول أن أتابع فى ضجر وصبر فى البداية ما أراه.. ثم فى اهتمام بعد ذلك.. وعرفت فيما بعد منه هو شخصياً أنه كانت له وقفة شديدة مع الرقص الشرقى وعرى الراقصات.. لدرجة أنه صمم لهن زيا محتشماً رفضته الراقصات فى البداية حتى فرضه عليهن فرضاً ..وكان ذلك فى فترة رئاسته لمصلحة الفنون.

درس.. فى عبقرية الروتين!

دخل علينا رأفت فصيح ذات صباحٍ قبل بداية العمل.. كانت المجلة خالية.. لم يحضر بعد كل طاقم تحرير المجلة.. وكان يحيى حقى قد حضر مبكرا..

قال رأفت فصيح قبل أن يجلس: أنا كنت امبارح يا أستاذ يحيى فى مخازن الهيئة (يقصد مخازن دار الكاتب العربى)..

أنصت يحيى حقى باهتمام وهو يتابع كلام رأفت فصيح.

استطرد رأفت: ياه يا أستاذ يحيى لو تشوف كمية الكتب اللى هناك.. حاجة مالهاش أول من آخر.. حرام والله.. حرام!

سألة يحيى حقى: كتب كثيرة قوى يا رأفت؟!

قال رأفت: كتب؟ ياريت كتب وبس..! دى كتب ومجلات وسلاسل وحاجات كثيرة قوى يا أستاذ يحيى.. تطلع من المطابع تقعد لها عند البياع يوم ولا يومين وبعدين تشيلها العربيات وترميها فى المخازن!!.

سأله يحيى حقى مرة ثانية: فين المخازن دى يا رأفت؟

قال رأفت: فى الهرم.. وهنا جنبنا فى التوفيقية.. وتطرق الحديث بعد ذلك إلى أمور شتى منها مايتعلق بشئون المجلة ومكافآت الكتاب وأخبار الزملاء والأدباء.. ثم بدأ أعضاء التحرير يتوافدون.. كان أولهم الأستاذ فؤاد دوارة ثم تبعه الأستاذ يوسف الشارونى ثم جاءت الزميلة عايدة البدراوى ثم نجاح ومنيرة دكرورى..

التفت الأستاذ يحيى حقى إلى الأستاذ فؤاد دوارة يحكى له الخبر الذى نقله إليه رأفت فصيح.

قال: تصور يا فؤاد.. رأفت بيقول إنه شاف فى مخازن الهيئة كتب مالهاش أول من آخر!!

قال فؤاد دوارة معقبا: يعنى يا أستاذ يحيى.. عادى.. هو فى حد بيقرا.. أهه زى ماحضرتك عارف.. الكتاب من دول يطبع ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف أو خمسة آلاف.. يوزع منهم مائة مائتين ثلاثمائة يبقى عال قوى.. والباقى يروح على المخازن! ثم أضاف متصعبا: حرام والله لازم يشوفوا لهم حل.. دى مصاريف برضه وأفكار ناس وترجمة وحاجات حلوة.. خسارة!

انتهى ذلك اليوم ولم نكن نعرف أن يحيى حقى قد فكر فى طريقة لحل هذه المشكلة.. كيف يمكن أن يصل الكتاب إلى القارىء؟!

وهداه تفكيرة إلى أن الكتاب إذا ذهب إلى مكتبات المدارس والجامعات والمعاهد فإنه بذلك يكون قد أدى الغرض دونما حاجة إلى إعادة طرحه فى الأسواق.. لأنه ربما كانت تكلفة الكتاب وسعره يقفان حائلا دون شرائه.. وما الجدوى من الكتاب إذن إذا لم يصل إلى قارئه؟!

صباح اليوم التالى كان يحيى حقى يطلب من رأفت فصيح أن يتصل بوزير الثقافة لتحديد موعد لمقابلته.

وأجرى رأفت فصيح الإتصال بالفعل.. ثم جاء إلى مكتب يحيى حقى قائلا: إن الميعاد هو الغد فى الساعة العاشرة صباحا..

أشار إلىّ يحيى حقى: خليك فاكر عشان نروح سوا نقابل الوزير!

ولم أكن أعرف لماذا يريد يحيى حقى على وجه التحديد مقابلة الوزير.. وتصورت أنه ربما يكلمه فى شأن من شئون المجلة مثل زيادة مكافآت الكتاب أو ما إلى هذا..

فى مكتب الوزير فى قصر عائشة فهمى بالزمالك استقبلنا الدكتور ثروت عكاشة مرحبا.. كان واضحا أنه يحمل احتراما كبيرا للأستاذ يحيى حقى الذى قال: يا أستاذ ثروت أنا جاى أحمل لك فكرة مشروع عظيم جدا.. أفندم! بعض الزملاء قالوا لى إن مخازن الهيئة مليانة كتب بياكلها التراب ..فإيه المانع إن احنا نفرقها على مكتبات المدارس

والمعاهد والجامعات مجانا.. وأهى تبقى توصل للطالب يقرأها فى وقت فراغه أو بين الحصص زى ما أغلبنا اتعلم من سور الأزبكية أو من مكتبة المدرسة أو المكتبة العامة؟!

قال الوزير: فكرة عظيمة جدا يا أستاذ يحيى.. إيه المطلوب منى؟

قال يحيى حقى: موافقتك!

رد الوزير: موافق جدا جدا.. أنا تحت أمرك!

قال يحيى حقى إذن على بركة الله.. أقابل وزير التعليم واتفق معاه.

قال الوزير وهو يصافحنا مودعا: قوى قوى وإن شاء الله مايقولش حاجة!

قال يحيى حقى: لأ..ده أنا اتصور أنه يرحب جدا جداً.

وانتهت المقابلة.. واتصلت بوزير التعليم فى ذلك الوقت.. وكان قبل الوزارة من كتاب المجلة والمترددين عليها وهو الدكتور عبد العزيز السيد رئيس جمعية العلوم السياسية قبل الوزارة.

ورحب الوزير بموعد الأستاذ يحيى حقى.. وفى مكتبه كان لقاء آخر رحب فيه الوزير بشدة بزيارة يحيى حقى..

قال يحيى حقى: ياسيدى أنا جاى لك من عند الأستاذ ثروت عكاشة!

قال الوزير: وازيه؟

قال يحيى حقى: بخير.. وعرضت علية فكرة أن كتب الهيئة اللى فى المخازن تأخذها وزارة التعليم وتوزعها على مكتبات المدارس والمعاهد والجامعات والكليات.. وأهى الفايدة توصل للطلبة مجانا لحد عندهم بدل ماهم يروحوا لها ويتعبوا نفسهم!

قال الوزير: دى فكرة عظيمة جدا يا أستاذ يحيى.. قوى قوى ياريت.. وأنا بنفسى حاشكر الدكتور ثروت عكاشة على موافقته الكريمة دى.. وضغط الوزير زرا فوق مكتبه وطلب من سكرتيره أن ينادى « فلان» وكيل الوزارة المختص.

ومرت دقائق حضر بعدها وكيل الوزارة.

وقام الوزير بواجب التعريف..

قال الوكيل: طبعا يحيى بيه ومين مايعرفش يحيى بيه حقى؟!

قال الوزير: يافلان عاوزك تساعد الأستاذ يحيى حقى فى مشروعه العظيم ده وتيسر له كل الوسائل اللى تجعله فى متناول كل طالب فى مصر.. اتفضلوا.. اتفضل يا يحيى بيه مع سعادة الوكيل وهو حيقوم باللازم!

ورحب بنا الوكيل.. وقادنا إلى مكتبه.. وهناك دار حوار مختلف..

قال الوكيل: هو إيه بالضبط المشروع يا أستاذ يحيى؟! إيه الحكاية؟!

قال يحيى حقى: ياسيدى مخازن الهيئة عندنا فى وزارة الثقافة مليانة كتب.. عشرات الألوف من الكتب بياكلها التراب.. فاحنا فكرنا يعنى وكتر خيره الدكتور ثروت عكاشة.. الوزير وافق على أن الكتب دى كلها تروح لكم إنتم فى وزارة التعليم علشان توزعوها على مكتبات المدارس والمعاهد والكليات.. ونبقى بكده خدمنا ولادنا الطلبة ونقلنا لهم الكتب لحد عندهم يقروها.. ونخرج جيل قارىء مثقف عظيم نفتخر بيه.

قال وكيل الوزارة: مشروع عظيم جداً أشكرك عليه يا أستاذ يحيى .. آهى دى افكار الأدباء والفنانين ولاّ بلاش.. صحيح.. أهو ده الكلام المضبوط .. لكن اسمح لى يا أستاذ يحيى..هى الكتب دى قد إيه؟!

قال يحيى حقى: قلت لحضرتك عشرات الألوف!

سكت وكيل الوزارة لحظات ثم رفع رأسه إلى الأستاذ يحيى حقى قائلا: ومين يا ترى حيفرزها؟ هم هناك فى وزارة الثقافة؟! ولا احنا هنا اللى حنفرزها؟!

أحس يحيى حقى أن المسألة قد دخلت دروباً متشعبة وأنها قد بدأت مرحلة شائكة من التعقيد.. لكنه ظل متمسكا ومصراً على فكرته ومتشبثاً بأمله.. قال: ياسيدى ماتفرقش.. لجنة عندكم ولا لجنه عندهم.. واحد..

قال وكيل الوزارة: لأ.. تفرق يا أستاذ يحيى.. دى أصلها حيتبعها اجراءات ورقية وفيها مكافآت لجان ومكافآت.. سهر.. وعمل إضافى ولابد من اختيار أكثر من لجنة علشان فرز الكتب.. حضرتك عارف.. يعنى اللجنة تحدد إيه الصالح من الكتب وإيه اللى مش

صالح ونوعياتها ومستوياتها ومضمونها.. وأى الكتب تصلح للبنات وأى الكتب تصلح للأولاد ولأى مستوى.. وإيه اللى يروح التعليم الصناعى وإيه اللى يروح التعليم العالى.. إلى آخره يا أستاذ يحيى.. حضرتك فاهم!!

قال يحيى حقى وقد بدأ الفأر يلعب فى عبه: والحل؟!

قال وكيل الوزارة: لأ ومش بس كدة.. ولسه كمان مصاريف النقل.. يا ترى العربيات حتبقى على نفقة وزارة الثقافة ولا على نفقة وزارة التعليم؟.. يعنى أسطول النقل بعد الفرز إذا قلنا إن احنا انتهينا من الفرز والتصنيف.. مصاريف العربيات اللى حتسافر من أسوان إلى اسكندرية إلى رشيد إلى بورسعيد إلى السويس مين حيدفع تكاليفها؟!

قال يحيى حقى: والله أظن وزارة التعليم!!

قال وكيل الوزارة: واللجان التى حتتشكل فى المدارس.. مين حيدفع تكلفتها؟!.. غير كده يا يحيى بيه حضرتك عارف.. إحنا كده حنسبب إحراج للوزارة كبير جداً!!

قال يحيى حقى مندهشا: إحراج كبير؟ إزاى لا سمح الله؟!

قال الوكيل: طبعا.. حضرتك مش عارف إن فى مدارس كثيرة مافيهاش مكتبات.. يبقى معنى كده إن أنا لازم أبنى لها مكتبات.

يايحيى بيه- قالها وكيل الوزارة مستغيثا- ارحمنا ربنا يخليك.. بلاش المشروع ده!

أضاف متحسراً: والله دا مشروع عظيم جداً وعلى عينى وعلى رأسى.. لكن تنفيذه مستحيل يا أستاذ يحيى!

قال يحيى حقى بحسن نية ومازال متشبثاً بالأمل: ولكن الوزير موافق!

قال الوكيل: لأ بالعكس .. دول وزيرين كمان!

قال يحيى حقى: آه صحيح.. وزيرين..

استطرد الوكيل فى ثقة: إذا كان على الدكتور عبد العزيز السيد سيبهولى.. أنا أقدر

أقنعه.. وسعادته لابد حيوافق لأن المسألة مش بالبساطة اللى بنتكلم بيها.. دا وراها ما وراها يا أستاذ يحيى!..

أضاف بعد فترة كالمعتذر: معلهش سامحنا المرة دى!

خبط يحيى حقى كفاً بكف قائلا فيما نحن خارجان من الوزارة: الأمر لله!

وفى طريق عودتنا إلى المجلة قال يحيى حقى : شفت ؟! ماتزعلش لما حلمك ينكسر تحت رجليك زى القزاز.. احلم حلم تانى.. مين عارف يمكن ييجى يوم ويتحقق حلمك.. يالله بينايا ابنى على المجلة .. الأمر لله!

حكاية لابد منها!

شتاء يوم من أيام عام ١٩٧٠ .. كنا نشعر أن النهاية تقترب.. أخبار كثيرة تصلنا عن دمج المجلات أو عن إلغاء المجلات.. البعض يؤكد.. والبعض ينفى.. والبعض يقول إنها مجرد شائعات سببها قرار الحكومة بضغط الإنفاق.

كان العمل فى المجلة مستمراً رغم متاعب صرف المكافآت!

اعتذارات يحيى حقى للكتاب أصبحت روتيناً يومياً.. وأصر الكتاب كبارهم وصغارهم على مواصلة الكتابة للمجلة بدون مكافأة.. حتى كان ذلك اليوم الذى دعتنا فيه الدكتورة سهير القلماوى إلى اجتماع عاجل فى مكتبها ..

ذهبنا إلى الاجتماع فى مكتبها بكورنيش النيل..

قالت الدكتورة سهير بعد الاعتذار إنها تأسف أن تخبرنا أنه قد جاءها قرار بتصفية المجلة. وقالت: ليس معنى هذا أننا سنوقف المجلات نهائيا.. لكننا سنضغط الانفاق وسندمج بعض المجلات وربما نعتمد على مجلة واحدة فى المرحلة الحالية..

سأل الأستاذ يحيى حقى عن مصير العاملين فى المجلات!

قالت إن أمامها الكشوف وأنها تراجعها الآن.. وأنها وجدت فى كشف المجلة بعض المعارين من وزارة الثقافة من الديوان العام وبعض المنتدبين من هيئة الاستعلامات- مثلى- وأنها ليس أمامها إلا أحد حلين: إما إن نعود الى جهات عملنا الأصلية وإما إن شئنا بقينا معها على الوضع الذى سوف تراه هى مناسبا لها ولنا ولظروف العمل فى دار الكاتب العربى فى ذلك الحين.. وسألت أنا: زى إيه مثلا يا دكتورة؟!

قالت: ليس أمامنا الآن سوى المطابع كمصححين ومراجعين ..أو العمل فى مكتبات التوزيع كبائعى كتب!!

خبط يحيى حقى سطح مكتبها براحة يده محتدا وقال: معقول يا دكتورة؟ أدباء وفنانين وكتاب قصة ومسرح يشتغلوا بائعين كتب؟ مين قال كده؟!

قالت وهى ترفع يديها أمامه علامة على العجز: وأنا أعمل إيه يا أستاذ يحيى؟! حط نفسك مطرحى!

قال: ربنا يساويها.. إحنا نفكر.. يالله بينا ياولاد!!

وعدنا إلى المجلة.. كان الوجوم مخيماً على الجميع وحالة من الحزن تسرى بيننا..

وسألنا يحيى حقى وهو يلقى بجسمه على الفوتيل فى غرفته: والعمل يا ولاد؟!

قلنا: العمل عمل ربنا يا أستاذ يحيى..

قال رأفت فصيح: أنا سأذهب إلى مجلة اليونسكو.. هم يريدوننى هناك..

وتبادل الشاعر الحسانى حسن عبد الله وكمال ممدوح حمدى النظرات فى حيرة..

قلت: عن نفسى أنا سأعود إلى هيئة الاستعلامات!

قال يحيى حقى: يا ابنى أنت مجنون؟!.. فى فنان يشتغل موظف؟! عايز تقضى حياتك تبص فى شوية ورق لا راحوا ولاجم؟! أنت متعرفش ان الفنان ده زى الظاهرة الكونية.. لازم نحتفل بيها ولازم نكرمها مش ندفنها؟

قلت: وأنا أعمل إيه يا أستاذ يحيى ؟!

أدار وجهه بيننا ثم قال: ادونى فرصة.. ثم استأذن وانصرف..

ومرت أيام.. ثم جمعنا يحيى حقى فى المكتب وقال انه خاطب ابن شقيقه إبراهيم حقى فى «الأهرام» الأستاذ محمد حقى رئيس قسم الشئون الخارجية وعرض عليه أسماءنا نحن الثلاثة: الحسانى حسن عبدالله الشاعر المعروف، وكمال ممدوح حمدى وهو باحث فى الدراسات اليونانية واللاتينية القديمة وقاص وناقد كان له اسمه فى ذلك الوقت.. وأنا .. وأنه عرض عليه أن يقبلنا فى «الأهرام» كمترجمين.. فرحبنا بالفكرة وشكرناه عليها..

وقال يحيى حقى إنه ينتظر من محمد حقى موعداً للقائنا بعد أن يتصل بالأستاذ هيكل للحصول على موافقته.

وتأخر رد الأستاذ محمد حقي ..

وسألنا الأستاذ يحيى بعد مدة على استحياء إذا كان قد وصله أى رد من الأهرام!

أملاني الأستاذ يحيى حقي رقم تليفون محمد حقي فطلبته وناولته السماعة..

قال يحيى حقي: إيه الأخبار يا ميمي؟ عملت لى حاجة فى الموضوع اللى كلمتك عليه؟!

قال محمد حقي: والله ياعمي لسه ماقابلتش الأستاذ هيكل.. إنما أنا فاكر إن شاء الله مافيش مشكلة.. بس اديني فرصة!

قال يحيى حقي مؤكدا: دا موضوع يهمني قوى يا ميمي.. يهمني قوى.قوى ..أرجوك.. فأكد له محمد حقي أن المسألة مسألة وقت وليس أكثر..

وانتظرنا فترة ثانية وثالثة وان كنا قد بدأنا نشك في إمكان حدوث أى شىء.

وعاود يحيى حقي الاتصال بمحمد حقي أكثر من مرة حتى حصل على موعد يستقبلنا فيه بمكتبة فى «الأهرام» فى الدور الرابع.

كان محمد حقي فى استقبالنا ورحب بنا فى دماثة شديدة. وقال إنه لامانع لديه ولايعتقد أن الأستاذ محمد حسنين هيكل يمكن أن يكون لديه أى مانع.. فالأهرام يريد التوسع فى القسم الخارجي وأنه بصدد أن يجرى لنا اختبارا سريعاً يختبر فيه قدرتنا على الترجمة.. وأنه فقط ينتظر موافقة شفاهية من الأستاذ هيكل الذى لم تجمعه به الظروف حتى الآن بسبب سفر الأستاذ هيكل المتكرر إلى الخارج فى ذلك الوقت.

وطال الانتظار ..وسألنا يحيى حقي وكان يعتقد أن الموضوع قد انتهى فأخبرناه أنه لاشىء قد تم حتى الآن!

قال يحيى حقي منفعلا: اطلب لى ميمي!

قلت: لا داعي يا أستاذ يحيى.. واضح أن الأستاذ محمد حقي لايستطيع عمل أى شىء وأنه يخجل أن يصارحك بهذه الحقيقة!!

ولم أر فى حياتي حزناً على وجه يحيى حقي كما رأيته فى ذلك اليوم.. بسبب أنه لايستطيع أن يقدم لنا شيئا .

قال يحيى حقي: أنتم أولادى.. ومش ممكن اسيبكم كده أبدا.. أنا أروح أقابل الأستاذ هيكل بنفسي!

قلنا له جميعا في نفس واحد: لاداعي يا أستاذ يحيى احنا بنشكرك جدا .. كتر خيرك.. إحنا يكفينا مجرد اهتمامك ده.. ده في حد ذاته له معنى كبير قوى عندنا!!

وتكررت المحاولة مرة ثانية عند تولى صديقنا الأستاذ بدر الدين أبو غازى الناقد التشكيلي المعروف مهام عمله كوزير للثقافة وكان وكيلا لوزارة الخزانة قبل ذلك الوقت.. فما أن تولى وزارة الثقافة حتى جاء يودعنا كعضو في أسرة تحرير المجلة.. وعرض عليه الأستاذ يحيى حقي مشكلتي أنا شخصيا..

قال الأستاذ بدر الدين أبو غازى مستنكرا: لأ طبعا مش معقول! يروح يدفن نفسه وراء مكتب يراجع شوية ورق؟! ده عمل ممكن أى حد غيره يعمله! ثم التفت نحوى مستطرداً: اسمع أنت تيجى معايا الوزارة.

قلت مندهشا: أعمل إيه يا أستاذ بدر فى الوزارة؟!

قال: رزقى ورزقك على الله!

قلت شاكراً: كتر خيرك.. يعنى أعمل إيه؟!

قال: مثلا يعنى تمسك مكتب وكيل الوزارة للعلاقات الثقافية الخارجية.

قلت وقد اتسعت عيناى دهشة: وكيل وزارة حته واحدة يا أستاذ بدر؟ مش كبيرة دى شوية على واحد قدى وفى سنى؟!

قال: هى كبيرة آه.. إنما لابد أن لها حلا قانونيا.. مثلا نعملها ندباً.

قلت أحسم الموضوع: لا داعى لكل هذا يا أستاذ بدر.. المسألة لن تمر بسهولة لأنك لن تكون مطلق اليد فى الوزارة من أول يوم.. ولاحظ أننا بذلك نربى لنا عداوات قبل أن نبدأ..

قال فى محاولة أخيرة لمساعدتى: إذن تعال معى مديراً لمكتبى أو سكرتيراً للوزير حتى.. يعنى أقصد أننا سنكون معا فى المكتب ورزقى ورزقك على الله ياسيدى!!

قلت: أفكر!!

قال يحيى حقى متدخلا فى الحديث: سيبه يا أستاذ بدر دلوقتى يفكر وبعدين يرد عليك..

وأكملنا جلستنا فى المجلة بحضور الأستاذ فؤاد دوارة يرحمه الله والأستاذ يوسف الشارونى أطال الله عمره ومتعه بالصحة والأستاذ الدكتور شكرى عياد يرحمه الله وباقى الزملاء فى المجلة ..وودعنا الأستاذ بدر الدين أبو غازى متمنين له كل التوفيق فى عمله الجديد..

وسألنى الأستاذ يحيى حقى ونحن فى طريقنا إلى المترو كعادتنا: ماقلتليش رأيك إيه ؟

قلت: فى مسألة وزارة الثقافة؟

قال: أيوه!

قلت: والله يا أستاذ يحيى أنا ما تصورتش نفسى اشتغل سكرتير عند حد!

هتف مشجعاً: براڤوعليك.. أنا رأيى كده برضه وكنت منتظر أسمع رأيك إنت..ثم أضاف: يا ابنى أصل انت لو ربطت نفسك بحد ياخدك معاه وهو طالع حتقع معاه لما ينزل.. وبعدين لو سابك مش حتخلص من الوحوش اللى حيتلموا عليك ينهشوك بعد ما يكون ساب الوزارة.. أنا كنت متأكد إنك حتقول كده..

قلت فى حيرة: بس مش عارف أبلغ الأستاذ بدر أبو غازى إزاى يا أستاذ يحيى؟!

قال: ولايهمك.. سيب دى عليا أنا.. وأنا أبلغه بنفسى.

وقد كان.. اتصل الأستاذ يحيى حقى بالأستاذ بدر أبو غازى فى بيته.. وبأسلوبه الدبلوماسى الرقيق أبلغه شكرى واعتذارى..

جمال.. وليس قبحاً!

كانت المجلة هي ملتقى كل أدباء وفناني ومثقفى مصر والدول العربية.. فى دار المجلة بالدور الرابع من العمارة رقم ٢٧ شارع عبد الخالق ثروت ناصية شارع شريف .

كان اللقاء تحت مظلة أبوة وحنان وحب وأستاذية يحيى حقى ..

فى ظلال المجلة وفى جوها المفعم بالمودة التقيت بكل مثقفى مصر.. أذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر المرحوم ضياء الشرقاوى والمرحوم عبد الحكيم قاسم وأصدقائى إبراهيم أصلان ومحمد إبراهيم مبروك وجميل عطية إبراهيم .وآخرين منهم، يحيى الطاهر عبد الله يرحمه الله وعبد المنعم عواد يوسف ومحمد سليمان والعالم الجليل الراحل الدكتور جمال حمدان والسياسى البارع حسين ذو الفقار صبرى ووزير الثقافة الأسبق بدر الدين أبو غازى وعبد العال الحمامصى وأحمد الحضرى الناقد السينمائى المعروف والسيد راشد وأحمد هاشم النحاس والأديب التركى أكمل الدين إحسان أوغلو وفاروق شوشه وبهاء طاهر ومحمد إبراهيم أبو سنة ومحمد مهران السيد يرحمه الله وحسن توفيق وبدر توفيق والفنان التشكيلى المعروف حسن سليمان والفنان التشكيلى الراحل سعد عبد الوهاب وأستاذ التشكيليين عبدالسلام شريف ومحمد عبد السلام العمرى ووحيد حامد وعز الدين نجيب.. وعشرات الأسماء فى كل اتجاهات الثقافة والفن والفكر.

جلسنا ذات نهار نستمع إلى قصة للأديب المبدع الأستاذ إسماعيل البنهاوى.

جلس يحيى حقى معتمداً رأسه فوق راحة يده يستمع باهتمام شديد.. وكانت هذه عادته.. لايقاطع ولكن يمعن فى التأمل والتركيز..وفى موضع من القصة رفع يحيى حقى رأسه ثم عاد إلى سابق جلسته حتى انتهى البنهاوى من قراءة القصة..

قال يحيى حقى معقبا: حلو قوى يا إسماعيل.. لكن مش حأقدر أنشرها .

وفوجيء إسماعيل البنهاوى مثلما فوجئنا نحن أيضا فسأل: لماذا يا أستاذ يحيى ؟!

قال الأستاذ يحيى حقى: علشان فيها كلمتين يستحيل ضميرى يسمح لى أنشرهم فى المجلة.

قال البنهاوى: آه تقصد حضرتك كذا وكذا؟!

قال يحيى حقى: بالضبط !

ولا مجال هنا لذكر الكلمتين لأننى لا أريد أن أعيد الذكرى بكل مافيها وإنما سأكتفى بالإشارة..

كانت القصة تحكى عن علاقة بين امرأة ورجل.. حتى تصل إلى موضع من القصة على لسان البطلة فتقول مخاطبة الرجل أنها كانت(كذا) وكان هو (كذا) فى وضع (كذا) عندما (كذا) ..

ودافع البنهاوى بحرارة عن موقفه وعن حتمية استخدام هذين اللفظين وإن كان فيهما بعض الجرأة وبعض الإباحية ..

قال يحيى حقى: يا ابنى القصة أنا معاك.. جميلة جدا.. وعلى عينى إنى مش حأنشرها لكن الأدب فى النهاية بقدر ما هو تعبير عن الواقع فهو أيضا رسالة فنية هدفها الجمال.. والأدب الذى لايخدم الجمال ولايخدم خير الإنسان وسعادته انا لا اعتبره أدبا ..

قال البنهاوى: لكن فى الواقع يا أستاذ يحيى أحيانا مواقع ومواضع فيها من الفجاجة والعنف والقبح الشيء الكثير الذى يفوق أى تصور.. فكيف يعبر الأدب عن هذا القبح؟!

قال الأستاذ يحيى حقى: يعبر عن هذا القبح بكل قوة ولكن بجمال ! أما أنك تغرف من الواقع بكل فجاجته لتضعه أمامنا فهذا مالا نرضاه.. هل يمكن أن تعبر الموسيقى مثلا عن القبح بهذه الصورة؟!

ثم التفت إلينا وأ دار عينيبه فينا قائلا وكأنه يلقى علينا درسا من دروسه: الفن يا جماعة رسالة من رسالات السماء.. وكأننا مربوطون بالعالم الذى أتينا منه بهذه الخيوط .. باللون والصورة والكلمة والنغمة.. فكيف يمكن أن تكون أسباب اتصالى بالسماء

والجمال الذى أتيت منه.. كيف تكون أسباب اتصالى بكل هذه المعاني الجميلة والقيم النبيلة والجمال المطلق .. كيف تكون بهذا القبح؟! أفندم؟!

جمع اسماعيل البنهاوى أوراقه وتهيأ للانصراف..

ناداه يحيى حقى عند الباب قائلا: غيرّ الكلمتين دول يا اسماعيل أنشرها لك فوراً.

وقال البنهاوى معتذرا: افكر يا أستاذ يحيى..

وفى جلسة أخرى تأكد لى هذا المعنى عندما صدرت رواية « تلك الرائحة» للكاتب الأديب صنع الله إبراهيم..

قرأها يحيى حقى وأبدى إعجابه الشديد بفنيتها وتمكن الكاتب.. لكنه اضاف كلمة واحدة عندما سألته: تنصحنى بقراءتها يا أستاذ يحيى؟

قال: أنت حر.. لكنى أريد أن أضيف إلى عنوانها كلمة واحدة أراها ضرورية جداً وهى « الكريهة».. فيصبح عنوان الرواية «تلك الرائحة.. الكريهة»!!

وعادت إلى ذهنى على الفور محاورة يحيى حقى مع إسماعيل البنهاوى فى حضورنا نحن بعض أدباء الستينيات.. وأدركت أن يحيى حقى مازال على موقفه من أن رسالة الفن هى الجمال.

من مفكرة يحيى حقى

صالة التحرير بالأهرام.. كنت على مكتبى أمارس عملى فى سكرتارية التحرير وإخراج صفحات الجريدة كالعادة..

كانت الساعة تقترب من الواحدة ظهراً حين جاءنى أحد السعاة من مكتب رئيس مجلس الإدارة يسألنى : حضرتك الأستاذ سامى فريد؟ قلت: نعم!

قال: اتفضل شرفنا..

سألته : فين؟

قال: فى مكتب يوسف بيه (يقصد الأستاذ يوسف السباعى)..

نهضت مغادرا المكتب موصيا زميلا لى بمتابعة عملى.. واتجهت فورا إلى مكتب رئيس مجلس الإدارة وفى ذهنى أنه يطلبنى لعمل خاص بصفحات الجريدة..

فى مكتب رئيس مجلس الإدارة استأذنت ودخلت.. فوجدت الأستاذ يحيى حقى جالساً فوق كنبة من الجلد الأسود وإلى جواره الأستاذ يوسف السباعى وأمامهما الأستاذ صلاح منتصر..

ابتسم يحيى حقى عندما رآنى ثم أشار لهما قائلاً : سامى ده ابنى.. ثم مد يده فأسرعت إليه أصافحه.. أشار إلى مقعد قريب وقال : اجلس يا سامى.. فجلست .

سألنى: عامل إيه فى الأهرام يا سامى؟!

قلت: الحمد لله.

وعقب الأستاذ صلاح منتصر مجاملا: سامى ده واحد من أحسن سكرتيرى التحرير فى« الأهرام» عملا وخلقا.

قلت في خجل حقيقي: العفو يا أستاذ صلاح..

سألني الأستاذ يوسف السباعي قائلا: الشغل ماشي كويس؟!

قلت: تمام.. الحمد لله..

نظر إلى الأستاذ يحيى حقي يسأله: يستنى يا أستاذ يحيى ولايروح شغله؟!

رد الأستاذ يحيى: لا يتفضل يشوف شغله أنا خلاص اطمأنيت عليه.. ثم قال قبل أن أخرج: ابقى اسأل على ياسامي .. كلمني في التليفون!

استدرت قبل أن أغادر الغرفة قائلا: حاضر يا أستاذ يحيى.. ثم استأذنت وخرجت..

ومرت أيام..

لم أكن بالطبع أعرف سر لقاء يوسف السباعي ويحيى حقي.. وظننت أن المسألة لاتخرج عن كونها لقاء بين إديبين وزميلين في المجلس الأعلى للفنون والآداب بالزمالك.. لكنني بعد فترة أدركت سبب المقابلة عندما استدعاني الأستاذ صلاح منتصر إلى مكتبه.. وهناك قال لي: سامي انت علاقتك بالأستاذ يحيى حقي شكلها إيه؟!

قلت مستغربا: الأستاذ يحيى بيعتبرني ابنه!

قال: هايل.. مش عايزين أكثر من كده.. يعني نقدر نكلفك بمأمورية بسيطة فيها خدمة للأهرام وللأستاذ يحيى؟!

قلت: قوى يا أستاذ صلاح عينيا الاثنين .

قال: تعال إذن إلى مكتب الأستاذ يوسف السباعي..

وفي مكتب الأستاذ يوسف السباعي نهض الرجل خارجاً من خلف مكتبه محيياً في مودة شديدة.. وأجلسني أمامه وقال: أنا عرفت من الجماعة هنا إنك زى ابن الأستاذ يحيى حقي بالضبط .. الكلام ده صحيح؟

قلت: صحيح يا أستاذ يوسف..

قال: يعني ممكن تكلمه في حاجة حساسة شوية؟!

قلت مستفهما: زى إيه بالضبط ؟!

قال: الحكاية باختصار إن احنا عايزين نضم الأستاذ يحيى حقى لأسرة تحرير «الأهرام» وبنفكر ندى له صفحة أسبوعية يختار هو ميعادها يكتب فيها مفكرته.. يعنى أى حاجة تخطر على باله.. تجاربه الشخصية.. قراءاته.. نصائحه للشباب.. موضوعات.. نقد كتب.. اللى يشوفه

قلت: هو كان هنا علشان كده؟

قال: بالضبط لكنه رفض..

ثم أضاف: فالمطلوب منك أنك تحاول تقنعه إنه يكتب لنا المفكرة الأسبوعية دى..

قلت ومازال السؤال يلح فى خاطرى: أنا مستغرب هو رفض ليه؟!

قال الأستاذ صلاح منتصر: أنا باقول إنه يمكن يكون خجلان مننا.. ثم أضاف: حضرتك عارف يا أستاذ يوسف أدب الأستاذ يحيى حقى الشديد.. فجائز يكون مكسوف يحدد رقم أو مبلغ مكافأته من «الأهرام» ..فسامى مادام زى ابنه حيقدر يتفاهم معاه بحرية.

قال الأستاذ يوسف وهو ينهض مصافحاً ومودعاً: قل له إن يوسف بيقول لك هو موافق مقدماً على أى مبلغ تطلبه ومستعد يمضى لك على بياض من دلوقتى .. مع السلامة..

والحقيقة أننى سعدت جدا بما قاله الأستاذ يوسف السباعى.. وكنت أعلم أن الأستاذ يحيى حقى يمر بأوقات صعبة بعد إحالته إلى المعاش.. وكانت بعض الصحف قد نشرت ظلماً وافتراء أن يحيى حقى يبيع مكتبته من أجل أن يعيش.. والحقيقة التى يعلمها الجميع أن الأستاذ يحيى حقى أهدى مكتبته إلى جامعة المنيا فردت عليه شاكرة ومقدرة بأن منحته درجة الدكتوراة الفخرية.

وقد استاء الأستاذ يحيى حقى وحزن حزنا شديدا لهذا الظلم الذى ينشر عنه..

قال الأستاذ يوسف: يمكنك الآن أن تنزل وتروح للأستاذ يحيى حقى تبلغه ما قلته لك بالحرف الواحد.. وأرجو أن توفق فى مأموريتك.

قلت: إن شاء الله مافيش مشاكل يا أستاذ يوسف.. أنا متأكد إن الأستاذ يحيى ح يوافق على الأقل علشان خاطرنا احنا قراؤه.. اللى نتمنى نقرأ له حاجة على صفحات الأهرام.

قال: يالله مع السلامة.. ربنا معاك..

أنهيت عملى بالجريدة بسرعة وانطلقت إلى بيت الأستاذ يحيى فى شارع العروبة ومنه إلى ٣ شارع الشيخ الغزالى الدور ٢ الشقة رقم ٥ تسبقنى فرحتى فى أننى أحمل خبراً سعيدا إلى الأستاذ يحيى.. هو هدية للأهرام وهدية ابنه سامى فريد إليه بعد خروجه من دائرة الضوء باختياره.

رحب بى الأستاذ يحيى .. جلست .. الكلام يتسابق فى فمى .

قلت: يا أستاذ يحيى أنا جايب لك خبر حلو من «الأهرام»..

قال: خير.. فرحنى!

قلت: الأستاذ يوسف السباعى بيسلم على حضرتك وبيقول لحضرتك إذا كنت خجلان تسمى أمامه أى رقم للمكافأة فهو أعطانى تفويض إن حضرتك تقول أى رقم.. ويقول لحضرتك إن هو موافق ومستعد يمضى لك على بياض.

وكانت المفاجأة.. التى أصابتنى بذهول لفترة طويلة استمرت حتى عدت إلى بيتى كسيفاً مكسور الخاطر!!

هب الأستاذ يحيى حقى وقد استبد به حزن شديد لم أر مثله على وجهه فى حياتى.. وهو المعروف بدماثته ورقة حاشيته وأدبه الجم..

كان انفعاله شديداً . صرخ فى وجهى: إنت كمان زيهم؟! حتى انت ياسامى مش فاهم؟! لا إله الا الله.. ثم راح يكررها أكثر من مرة.. التفت بعدها نحوى قائلا: سيبنى دلوقتى ياسامى.. سيبنى أرجوك.. روّح إمشى!

قلت والحيرة تكاد تزلزلنى: طيب أفهم يا أستاذ يحيى أنا غلطت فى إيه؟! أفهم!!

قال: امشى دلوقت أرجوك!

قلت: لن أمشي .. ثم أضفت متوسلا: أرجوك.. من حقى عليك يا أستاذ يحيى أنى أفهم أنا غلطت في ايه؟!.. أنا جايب لحضرتك خبر حلو وأنا ابنك وعارف ان حضرتك بتمر بوقت صعب وأنا جاى أساعدك وداحقك عليّ .. يا أستاذ يحيى أنا جاى وفاهم إنى باحمل لك خبر يسعدك ويسعدنى.. وبعدين يا أستاذ يحيى حضرتك بتكتب فى التعاون والهلال تبقى إيه المشكلة إنك تكتب فى الأهرام؟!

قال مشفقا على حيرتى وجزعى: يا ابنى إفهم .. إفهم..

بعد فترة عاد اليه هدوؤه وجلس يستغفر الله.. ثم قال مربتاً فوق كتفى: ماتزعلش يا سامى أنا أفهمك.. يا ابنى أنا فى « الأهرام» واحد فى الفرقة.. كورس يعنى أوكومبارس.. حأبقى إيه جنب لويس عوض وحسين فوزى وزكى نجيب محمود ويوسف السباعى نفسه ويوسف إدريس وتوفيق الحكيم؟!

قلت: يا أستاذ يحي حضرتك بتكتب فى المساء.. مع الناس...

قال مقاطعا: لأ بطلت دلوقت ما باكتبش فى المساء .

قلت: بتكتب فى مجلة الهلال وبتكتب فى التعاون يا أستاذ يحيى.

قال: يا ابنى فى الهلال أو فى التعاون أنا هناك فرخة بكشك.. أنا هناك فرحتهم .. أنا العمود اللى بيستندوا عليه.. أنا هناك العريس اللى بيفرحوا بيه واللى بيرفع توزيعهم.. أنا باساعدهم علشان يزودوا قراءهم.. هم محتاجين الاسم يلتفوا حواليه.. إنما أنا أعمل إيه فى الأهرام جنب الناس دول؟!

فى الأهرام أنتم أغنياء بفلوسكم وناسكم.. خلينى أنا مع الغلابة اللى زيى واللى محتاجين لى.. إنما أنتم مش محتاجين لى فى «الأهرام» .

أضاف كمن يعد عن صدوره هما ثقيلا: ثم إن ده موضوع اتكلمنا فيه كثير .. كثير جداً وزهقت أشرح للناس.. حرام بقى .. كفاية!!

ربت يحيى حقى فوق كفى وهو يصافحنى وقال : ابقى أسأل على ياسامى .. سلام عليكم.

المفاجأة الأكبر أننى علمت بعد ذلك من العزيزة الأستاذة نهى حقى أن والدها كان يكتب فى الهلال والتعاون مجاناً!! وللأسف أننى علمت ذلك بعد وفاته يرحمه الله!

قالت لى فى أحد أمسيات ذكراه وكنت قد حكيت لها حكاية «الأهرام» : هل تصدقنى لو قلت لك إن أبى كان يكتب مجانا فى جريدة التعاون وفى مجلة الهلال ؟!

الآن أقلب هذا الموضوع فى خاطرى فيزداد إعجابى وحبى لهذا الرجل صاحب الرسالة.. والذى يعرف أن القلم لابد أن يضىء الطريق أمام كل من يحتاج وليس صوتا فى زفة ولايداً تصفق مع المصفقين.

كان هذا بحق هو يحيى حقى الذى تمنيت فى ذلك اليوم البغيد أن أقبل يده وأسأله أن يسامحنى على هذا الخطأ الذى لم أكن أقصده.

مكالمات صباحية

يدق جرس التليفون في بيتى صباحا فأرد بين النوم واليقظة..

يقول الصوت: آلو.. مين؟ سامى؟ أنا يحيى!

اعتدل وقد تنبهت..

صباح الخير يا أستاذ يحيى ..أؤمرنى !

يقول: هات ورقة وقلم .

أرد: حالا يا أستاذ يحيى .

واسرع باحضار الورقة والقلم..

يقول: اكتب بيت الشعر ده .

– اتفضل يا أستاذ يحيى.

يملينى قائلا: شوف ياسامى الشاعر سعدى الشيرازى بيقول بيت شعر جميل جداً:

نحن أمواج إن تسترح تنعدم

نحن أحياء بألا نستريح

ثم يعقب: ياسلام.. كلام جميل.. فهمته؟ احنا بالضبط كده ياسامى..

ثم سؤال عن الصحة والمزاج وكرمة والزوجة ودقة الزعتر ..وان كانت الحاجة حماتى قد انتهت منها؟

فأرد على الفور: النهاردة تكون عندك يا أستاذ يحيى..

يقول برقته المعهودة: متشكر قوى قوى ..ثم يضع السماعة..

وتليفون آخر فى صباح آخر

ترد عليه كرمة فيقول: مين ؟ مروة؟ أنا يحيى.. تقول كرمة: أنا كرمة ياجدو يحيى.

يقول: آه كرمة.. باتلخبط بينك وبين مروة.. انتوا زى بعض خالص وقد بعض.. إنتى كرمة.. خلاص مش هأنسى تانى.. باقول لك ياكرمة.. بابا موجود؟ وتناديني كرمة: جدو يحيى يابابا..

امسك السماعة في لهفة: أيوه يا أستاذ يحيى؟!

يقول: هات ورقة وقلم على طول اكتب ورايا: شوف ابن الرومى بيقول إيه؟! بيت شعر يا أخى ينفع يبقى رواية كاملة.. ياسلام.. الشعر ده هو أبو الفنون فعلا وأصعبها..

ثم يستطرد: انت فاكر إنك لما تكتب قصة تبقى عملت حاجة صعبة؟! القصة دى حاجة سهلة جدا.. الشعر هو الفن الحقيقى.. اكتب.. اكتب:

كدبيب الملال في مستهامين إلى غاية من البغضاء!

ثم يوضح:

شفت بيقول لك إيه؟ كدبيب الملال في مستهامين.. مش بين حبيبين؟ لأ.. بين مستهامين.. يعنى بلغا غاية الحب وهو درجة الهيام إلى إيه؟ إلى غاية من البغضاء.. يعنى بلغا قمة الكراهية.. والبغضاء هى شدة الكراهية والنفور.. يعنى مش بس كرهوا بعض.. فشوف.. من أقصى اليمين إلى أقصى الشمال في بيت شعر واحد.. شفت عظمة ابن الرومى؟! علشان كده دايما بأقول إن الشعر هو أصعب الفنون.. بس إيه يا ابنى.. الشعر الحقيقى.. مش أى حاجة تانية!!

وتليفون ثالث يسألنى: سامى انت قرأت مقدمة كرومويل؟

وأجيب بالنفى.

فيقول متأثرا: ليه يا ابنى؟ أرجوك انزل دور عليها دى مهمة جدا..

أو تليفون رابع يوصينى بقراءة كتاب بعينه.. وتليفون خامس وسادس وسابع.. وهكذا كنت أسعد بمكالماته التى تفتح أمامى آفاقاً جديدة.. وتؤكد لى أننا رغم افتراقنا في العمل إلا أنه مازال الأب والمعلم والأستاذ الذى يرعى أبناءه وأصدقاءه ويواليهم بكل ما يضع عليه يده من كنوز المعرفة.. هذا إضافة إلى سؤاله وهو الشيخ الكبير عنهم وعن حالهم وعن الصحة والأبناء.

كان الرجل دبلوماسيا بطبعه بعيدا عن الوظيفة.. وكان إنسانا قبل كل شىء.

في البيت

في مسكنه بشارع الشيخ الغزالي كنت على موعد معه..

دق جرس التليفون في بيتي.. كان هو المتحدث.. قال كعادته: أنا يحيى.. ممكن تيجي لي شوية قبل ما تروح الأهرام؟

في الموعد المحدد كنت أدق الجرس

جاءني صوته من خلف الباب: سامي؟ قلت: أيوه يا أستاذ يحيى..

سمعت شخللة الأجراس المعلقة وراء الباب!

فتح الباب فدخلت.. كان مرتديا جلبابه الأبيض في الفترة الأخيرة من مرضه.. كان واهنا وضعيفاً بعض الشيء.. قادني إلى غرفة نومه ثم جلس على طرف السرير وجلست أنا على كرسي بجوار السرير.. شكا لي من بعض متاعب في المعدة والقولون.. ثم قال: أخيرا وجدت حلا لمشكلة قديمة أرقتني..

سألته: خير يا أستاذ يحيى؟

أضاء لمبة كبيرة بيضاء في أباجورة بجوار السرير.. ثم قال بعد فترة: ضع يدك عليها .

قلت: لعلها ساخنة الآن يا أستاذ يحيى..

قال: أبدا.. ماهوده الحل!

وضعت يدي.. كانت اللمبة باردة!

قال: يا أخي أنا علشان نظري كنت أقرب اللمبة إلى وجهي فتسبب لي مشاكل كبيرة جداً.. دي أحيانا كانت تسبب لي التهابات في وجهي وحروق.. وبعدين قالوا لي في فرنسا

إن في مصنع بينتج اللمبات دى للى زيى.. فاشتريت اثنين.. هى غالية صحيح لكن مريحة جدا .. ثم أضاف بعد فترة: مش هو ده المقصود.. تعال معايا المكتب..

ذهبت معه إلى المكتب..اشار لبعض اللوحات عنده احداها لحسن سليمان وثانية لسعد عبد الوهاب وثالثة لأحمد مرعى شارحا لى أساليب الرسامين الثلاثة.. ثم سألنى أن ابحث له عن القاموس المحيط ليفتش عن كلمة في وصف الخيل.

فوق السلم صعدت ونزلت بالجزء المطلوب ورحت افتش عن الحرف وأقرأ.

فيقول لى: شفت ياسامى اللغة العربية ثرية قد إيه؟

.. شفت وصف الخيل شكله إزاى؟.. كل صفة لها اسم عندهم!! الحصان الأبيض له اسم .. والأسود له اسم.. واللى له غرة بيضاء له اسم واللى خصره نحيل له اسم.. واللى قوائمه طويلة له أسم.. علشان كدة أنا دايما أقول إن الكاتب لابد أن يكون فاحش الثراء في اللغة.. يا ابنى اللغة دى بحر كبير قوى.. أرجوكم إنت وكل زملائك.. أرجوكم على قد ما تقدرهات من نهر اللغة القديمة وحط فى الجدول اللى بتكتبوا منه قبل مايجف . دايما يا ابنى حاول ترجع الكلمات تانى.. هاتوا من القرآن كلمات واستعملوها من تانى . اعيدوا استخدام الكلمات القديمة من تانى وابعثوا فيها الحياة علشان تثرى اللغة .علشان ماتسمحوش للغتكم انها تذبل أو تموت أو تضعف أو تهجم عليها لغات أجنبية دخيلة ياسامى.. قالها متأثرا.. لغتنا دى لغة جميلة وكريمة وشريفة.. حافظوا عليها.. دى وصيتى لكم .

هززت رأسى موافقا على كلامه وفى نيتى أن أنفذ وصيته ..فعدت إلى القرآن اقرأه من جديد لاككتاب دين هذه المرة ولكن ككتاب لغة.. فاكتشفت أن القرآن كتاب الله المنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم هو كتاب تاريخ.. وهو كتاب قصة.. وهو كتاب فى فن الدراما.. وهو كتاب فى العلم أيضا وفى كل فروع المعرفة والنور: هو باختصار شديد العلم والمعرفة والنور وكل حياة الإنسان.. وكانت الإشارة من يحيى حقى الذى إلى الآن وبعد وفاته وبعد مرور كل هذه السنين مازلت أتعلم منه

محمد حافظ رجب

اختلفنا في المجلة على قصص الأديب السكندري المعروف محمد حافظ رجب..

كان يحيى حقي من أشد المتحمسين للأديب الشاب.. ولكنه للأسف الشديد واجه مقاومة عنيفة واعتراضات شتى من هيئة التحرير داخل المجلة ومن أصدقاء المجلة خارجها.

قال البعض إن أدب محمد حافظ رجب غير مفهوم.. وقال آخرون إنه يكتب قصة سريالية ليس هذا أوانها ..وأن هذا المنبر - وهو المجلة -قد نص في قرار إنشائه على أن يكون سجلا للثقافة الرفيعة.. وهو الشعار الذى كانت تصدر به المجلة نفسها لقارئها ..

ودهش يحيى حقي وقال: إذا كانت المجلة ستظل مجلة أكاديمية لأساتذة الجامعات فما هو دور الجامعة إذن؟! واذا لم نفتحها للشباب فلمن نفتحها؟ ولمن نعطى الأمل؟ إن المجلة يا إخواني إذا اكتشفت وقدمت للحياة الأدبية أديبا أو باحثا أو عالما فإنها تكون قد أدت الرسالة على أكمل وجه.. وأنا مازلت على رأيي في أن المجلة لابد أن تلعب هذا الدور... وتعالوا نقسم البلد نصفين.. سنجعل نصف المجلة للدراسات الأكاديمية والأبحاث.. ونجعل نصفها الثاني للشباب..

ووافق البعض على مضض.. وصدق البعض على كلام الأستاذ يحيى حقي.. ونشرنا قصة للأديب محمد حافظ رجب ومازالت الاعتراضات قائمة من معظم شيوخ الأدب القديم في مصر..

ولم يستطع يحيى حقي مقاومة التيار كثيرا ..فقد كان الهجوم شديدا على محمد حافظ رجب.

كان يحيى حقي يسأل كل من يراهم في المجلة من الأدباء والنقاد الشباب ان كانوا يعرفون محمد حافظ رجب وأين يستطيع أن يجده.. فقد كانت رسائل محمد حافظ رجب تأتينا من الأسكندرية ولانعرف أين يقيم فيها بالضبط .. إلى أن جاءنا صديق قال إنه يعرف أين يجده.. فرجاه الأستاذ يحيى حقي أن يسافر إليه على الفور أو يتصل به تليفونياً إذا كان لديه تليفون وأن يخبره بأن يحقي حقي يريده.

وقد حدث.. وفوجئنا بمحمد حافظ رجب داخلا علينا في المجلة..

كان شاباً قصير القامة بعض الشيء.. وكان واضحا أنه كان يرهب اللقاء..

أستاذن ودخل وقال بصوت خفيض : يحيى بيه.. أنا محمد حافظ رجب!

وفوجئت بالأستاذ يحيى حقى يهب من مقعده مصافحا ومعانقا بترحاب شديد قائلا: أهلا يا ابنى.. انت شرفت مصر.. انت محمد حافظ رجب؟ أنا معجب بيك قوى يا محمد.. اقعد ياحبيبى.. وأجلسه إلى جواره.

قال يحيى حقى: يا محمد أنت بتكتب قصة يا ابنى أنا أؤكد لك إنى لم أقرأ قصة فى جمالها ولافنيتها.. قصة مش للنهاردة يا محمد.. قصة- ويشهدوا على إخوانى- حتتفهم فى مصر وحتبقى انت الكاتب نمرة واحد .. إذا أصريت عليها واستمريت.. لكن بعد ٣٠ أو ٥٠ سنة.

أضاف وهو يضع يده فوق كتفه: إنت يامحمد سبقت آلان روب جرييه وناتالى ساروت لكن معلهش يا محمد أنا بعتذر لك.. أنا مش قادر أنشر لك كل قصصك لكن أنا حكلملك المسئولين عن النشر.. صديقى الشاعر صلاح عبد الصبور تروح تودى له شغلك ينشر لك قصصك فى مجموعات.. لكن أنا هنا يا محمد مش حقدر أنشر لك اكثر من كده لأن الناس مش فاهمة قصصك.. لكن أنا فهمتها الحمد لله.. يمكن لأنى قرأت فى الأدب الغربى كثيراً.. يمكن لأنى حسيت بيك.. لكن لا تتوقف ولا تجعل ده يدفعك إلى اليأس .. يامحمد أنت كاتب كبير قوى يا ابنى.

قال محمد حافظ رجب: والدموع تلمع فى عينيه: ياأستاذ يحيى شهادتك دى تكفينى حتى لو مانشرتش.. أنا كده النهاردة توجت.. أنا كده كرمت.. انت كده يا أستاذ يحيى رديت لى روحى ورديت لى اعتبارى.. أنت ما تعرفش يا أستاذ يحيى أنا عايش ازاى فى اسكندرية!!

قال يحيى حقى: بعض الإخوان قالوا لى يا محمد.. ربنا معاك.. لو عايز منى أى حاجة يا محمد قل لى..عايز شغل أو وظيفة فى القاهرة قل لى..

قال: الحمد لله الأمور ماشية.. تسمح لى يا أستاذ يحيى إن قدرت أبقى ازورك تانى؟!

قال الأستاذ يحيى حقى وهو يصافحه معانقا ومودعا: طبعا يا ابنى المجلة مجلتك وانا اعتبرنى صديق.. اعتبرنى أخوك .. اعتبرنى والدك أو زميلك.. اعتبرنى أى حاجة ترضيك.

وانصرف محمد حافظ رجب والدموع فى عينيه..

والتفت أنا إلى الأستاذ يحيى حقى..كان هو أيضا يدارى دمعة بدأت تتجمع فى عين الأب والصديق الذى فتح قلبه لأصدقائه وللدنيا ولكل الناس..

زهور للجارة

كنت ذات صباح فى زيارة لمنزل الأستاذ يحيى حقى فى شارع الخليفة المأمون فوق محطة البنزين المقابلة لكلية المعلمين.. أحمل إليه بعض مواد المجلة التى نعدها للنشر فى العدد الجديد.

استأذن الأستاذ يحيى حقى بعد قليل وقام إلى المطبخ يتبعه كلبه الأسود فيديل.. وهو كلب من سلالة الداشهاوند..

كان يحيى حقى يعد قهوة الصباح الإكسبرسو.. وكعادته كان ينادينى لاستمع منه إلى كيفية عمل القهوة الفرنساوى .

جلسنا نقرأ بعض مواد المجلة فترة امتدت حتى الظهر ..ثم قال: كفاية كده أنت تعبت.. وأنا كمان.. ثم نادى على قرينته مدام چان يسألها بالفرنسية إن كانت جاهزة!

أجابت من الداخل أنها جاهزة.

قام يحيى حقى واقفا ثم سألنى: ممكن أطلب منك خدمة .

قلت: تؤمرنى يا يحيى بيه.

قال: توصل لحد بتاع الورد فى العمارة اللى أمامنا اللى فيها محل البوتاجازات بتاعة مصانع الطيارات..

قلت: نعم.

قال : وتشترى لى صحبة ورد كويسة .

ثم وضع يده فى جيبه يخرج بعض المال.

قلت معتذرا خلاص يايحيى بيه خليها على المرة دى!

قال مصرا: لأ خد عيب.. أنا اللى طلبت الورد.

نزلت وقال لى عند السلم: قل له علشان يحيى حقى..

ولم أنتظر المصعد ونزلت مسرعا.

قلت للرجل ما أوصانى به يحيى حقى.. فاعطانى صحبة صغيرة بديعة عدت بها إلى الأستاذ يحيى.. تناولها فرحا.. آراها لزوجته التى أبدت إعجابها بتنسيقها وألوانها.

قال يحيى حقى: سامى.. تحب تستنانى.. حنوصل أنا والمدام للجارة علشان لسه راجعة من المستشفى.. كانت بتولد.. ولاتحب تروح؟

قلت: أروح!

ودعنى مصافحا وخرجنا معاً.. نزلت عائدا إلى بيتى استعد للذهاب إلى المجلة فيما كان هو يقف أمام باب الجارة يدق الجرس ومعه قرينته الفرنسية مدام چان.

سيارة فورد زرقاء!

في عودتنا من المجلة ذات يوم صيف قائظ من عام ١٩٦٨ كنا نستقل سيارة المشرف الفني الجديد للمجلة الفنان الراحل أحمد مرعي.. وهي من ماركة فورد إنجليا إنجليزية زرقاء اللون ثلاثة باب.. وفي مطلع الحسين وفي المرور المرتبك بسبب الزحام التفت أحمد مرعي خلفه يخاطبني وقال ينبهني إلى سخونة المحرك: العربية حتولع يا سامي!

وفوجئنا والسيارة تتابع سيرها الوئيد في الزحام بالأستاذ يحيى يصرخ وهو يفتح الباب: وقف هنا يا أحمد.. نزلني!

قال أحمد مرعي: في إيه يا أستاذ يحيى ؟ حضرتك خايف ليه؟!

قال: يا ابني انت مش بتقول العربية حتولع؟!

قال أحمد مرعي: مش حتولع يا أستاذ يحيى.. أنا بقول يعني أنها سخنت..

اطمأن الأستاذ يحيى حقي قليلا..

ولكي يزداد اطمئنان الأستاذ يحيى أوقف أحمد مرعي السيارة وفتح الكبود ليضع في الرادياتير بعض الماء البارد حتى يبرد من سخونة المحرك.. فيما وقفنا أنا والأستاذ يحيى بجانب السيارة نقطع الوقت في حوار ضاحك..

قلت مازحا: أهو علشان كده يايحيى بيه أنا ماباحبش اشترى عربيات!

قال مجاريا للمزحة: وأنا كمان يا أخي والله!

سأل الأستاذ يحيى حقي أحمد مرعي بعد ذلك إن كانت السيارة جاهزة للمسير؟

ألقى أحمد مرعى نظرة فاحصة على المحرك والرادياتير ثم اغلق الكبود.. وقال: اتفضلوا مافيش خوف!

ركبت أولا فى الخلف ثم دخل الأستاذ يحيى حقى وبدأنا السير من جديد حتى خرجنا إلى شارع صلاح سالم ومنه إلى مصر الجديدة.. وكان الأستاذ يحيى خلال الطريق قد بدأ يبدى اهتماما بالسيارات وأنواعها وكيفية الخروج من مفاجآتها مثل سخونة المحرك وتلف بعض الأجزاء وكيف تعالج ميكانيكيا ..وهو موضوع كان أثيرا عند أحمد مرعى.. الذى بدأ يشرح حتى وصلنا إلى البيت.

نزل الأستاذ يحيى ونزلنا معه نودعه ..فصافح أحمد مرعى ثم صافحنى وسرت معه بعض خطوات إلى مدخل العمارة..

قال هامسا وهو يشير بوجهه ناحية أحمد مرعى عمرى ما حاركب مع أحمد مرعى تانى!

قلت: ليه يا أستاذ يحيى خير.. ماهى الرحلة تمت بسلام!

قال ضاحكا: تمت بسلام المرة دى. لكن ياحبيبى مش كل مرة تسلم الجرة.. سلام عليكم!!

يوم ممطر!

في سيارة أحمد مرعى أيضا- وهى نفس السيارة الفورد إنجليا الزرقاء- كنا عائدين من طريق صلاح سالم.. وكان المطر قد ترك خلفه بركاً صغيرة موحلة.

قال يحيى حقى لأحمد مرعى: اقفل الشباك يا أحمد لو سمحت!

قال أحمد مرعى معتذرا: ما أعرفش أسوق يا أستاذ يحيى لو قفلت الشباك!

سأل يحيى حقى: ليه؟!

قال أحمد مرعى:لازم أسمع الشارع من حولى..

رضخ يحيى حقى وجلس عاقداً أصابعه فوق صدره يتأمل الطريق أمامه.. فى ذات اللحظة التى مرت بها سيارة عسكرية مسرعة إلى جوارنا.. فتطاير ماء إحدى البرك ليدخل دفعة واحدة من النافذة فيغرق الزجاج ووجه وملابس أحمد مرعى.. وأصابنى أنا أيضا بعض الرذاذ فى الخلف.. فى حين لم تصل نقطة ماء واحدة إلى يحيى حقى .

التفت أحمد مرعى بسرعة يطمئن على الأستاذ يحيى حقى ويسأله: يحيى بيه.. فى حاجة جت على حضرتك؟ قال الأستاذ يحيى حقى: لا أبدا ماتخافش.. أنا أصلى كنت مستخبى وراء الحيطة!

ولم يلحظ أحمد مرعى المشغول بمسح الزجاج وتنظيف نفسه من ماء المطر الفكاهة اللاذعة التى أطلقها يحيى حقى.. فى حين استغرقت أنا فى الضحك فى الخلف.. بينما سألنى أحمد مرعى مبتسما لماذا أضحك وأنا مثله قد أصابنى ماء المطر الموحل؟!

لم أجب حتى وصلنا إلى منزل الأستاذ يحيى.. ثم نزل ونزلنا وشكرنا ثم لوح لنا مودعاً.

وركبنا السيارة نواصل المسير إلى منزلى فى شارع السباق رقم ٣ خلف المريلاند.

سألنى أحمد مرعى قبل أن يعود إلى بيته فى شارع منوف بمصر الجديدة : هو الأستاذ يحيى كان بيقول إيه أنا ما أخدتش بالى ؟!

قلت : كان يقول يا أحمد إنه ما أصابوش مية المطر لأنه كان مستخبى وراء الحيطة.. فهمت ؟!

وانفجر أحمد مرعى فى ضحكة من قلبه قائلا : كل ده يطلع منك يايحيى بيه ؟! ... الراجل ده شربات يا أخى

ثم ركب سيارته وهو يلوح لى مودعا ومازال غارقاً فى ضحكته..

فنجان قهوة مضبوط!

قريباً من ميدان سفير بمصر الجديدة وعلى شريط مترو النزهة كان محل البن الأثير الذى يشترى منه يحيى حقى مايحتاج إليه من البن السادة والمحوج .

ذهبنا مرة معا وبصحبتنا مدام چان قرينته .

أوقفت السيارة أمام مطحن بن زنانيرى ..

هبطت مدام چان من السيارة .. فسألت الأستاذ يحيى : ماذا ستفعل ؟

قال : يعنى .. حتشترى بن وشوية حاجات كده لها وللبيت .

أسرعت افتح باب السيارة وهممت بالنزول .. فأمسكنى يحيى حقى من ذراعى وسألنى : ماذا ستفعل ؟!

قلت : مايصحش يا أستاذ يحيى حأقول لها تتفضل فى العربية وأنا اشترى لها كل حاجة .

ضحك الأستاذ يحيى وهو يثبتنى فى مكانى قائلا : يبقى انت لسه مفهمتش الستات! الست تجد سعادتها جدا فى أنها تشترى حاجتها بنفسها ماتخافش على چان .. هى تعرف تتصرف كويس وتعرف تختار حاجتها ماتفسدش عليها متعتها .. اهدأ هى حتخلص واحنا قاعدين ندردش ونستناها .. متشكر قوى على شعورك .

مدام چان زعلانة!

في إحدى زياراتي للأستاذ يحيى حقى فى منزله فى شارع الشيخ الغزالى فوجئت بأن هناك حالة من الوجوم تخيم على المنزل.

كان واضحا أن الأستاذ يحيى حقى على غير عادته من المرح والتفاؤل.. وأن مدام چان منفعلة بشكل واضح.

سألت الأستاذ يحيى حقى همساً: هو فى حاجة يا أستاذ يحيى؟!

قال مبتسما فى دبلوماسية: لا أبدا حاجات بسيطة..

ظننت أن خلافا وقع بين الزوجين السعيدين فسألت: يعنى أمشى يبقى أحسن؟ وجودى دلوقتى مش كويس؟!

قال وقد اتسعت ابتسامته: أبدا أبدا.. أنت مش فاهم.. ياسيدى مدام چان محبطة علشان سفريتها الأخيرة لأولادها فى فرنسا.. ماكانتش كويسة!

أضاف شارحاً: أنت عارف إن لها بنت فى الجنوب وابن فى الشمال وبنسافر زى ما اتفقنا مع بعض من يوم ماتزوجنا.. كل سنة بنزور دى وبنزور ده.. وهم فى الحقيقة بيقابلونا مقابلة كويسة ويبقى فى برنامج ثقافى حلو.. وبنروح الأوبرا وبنروح المكتبات وبنروح لأصدقائنا .. ياسيدى السنة دى حست بشكل واضح إن اللغة بينها وبين ولادها اتغيرت!

قلت مستوضحا وأنا لا أفهم: يعنى إيه يا أستاذ يحيى.. اختلفوا مع بعض؟!

قال: لأ.. أنت مش فاهم.. يعنى اللغة التى بيتكلموا بها فى فرنسا الآن مش هى اللغة الفرنسية اللى أنا ومدام چان نعرفها.. لغتنا بقت قديمة ... النهاردة اللغة الفرنسية ياسامى اتغيرت كتير.. دخلها لاتينى ودخلها صربى ودخلها ألمانى..يعنى بقت لغة تقريبا بتقترب من العالمية .. دخلتها كل لغات العالم بما فيها الأسبانية وبعض العربية.. علشان كده كانت بتفهم ولادها بصعوبة.

أضاف: الحقيقة هي بقى لها كام سفرية كده وهي تلمح لي وتقول لي أنه حتى لغة الجرائد اتغيرت.. مابقتش أفهم الجرنال في إيه.. بقيت كل شوية أسأل دى إيه ودى إيه؟! وأسأل ولادى دى إيه ودى إيه!!

كان موقفاً غريباً..

تنبهت مدام چان الى أننا لابد نتكلم عن انفعالها وسبب غضبها

خاطبت الأستاذ يحيى حقى مستفهمة إن كنا نتكلم في هذا الخصوص؟

شرح لها أنه كان يوضح لى سبب غضبها.

كلمتنى بالفرنسية مندفعة بالغضب تشرح لى لماذا هى مستاءة وغاضبة.

لم أكن أفهم بالطبع إلا القليل من الفرنسية.. فكنت أرد عليها بالإنجليزية فتجيب أحيانا ببعض الإنجليزية مستعينة ببعض العربية.

تدخل الأستاذ يحيى مترجما: تقول لك هى في هذه الزيارة تصورت أن ابنتها وابنها ليسوا أبناءها وأنها لهذا تفكر الا تسافر إليهما مرة أخرى!!

سألت الأستاذ يحيى: وهل تعتقد أن اللغة العربية يمكن أن يحدث فيها كما يحدث فى اللغة الفرنسية؟!

قال وهو يشير بيده أمامى بعلامات النفى: لا.. لا.. العربى شيء مختلف خالص ياسامى.. ممكن تدخله بعض كلمات عامية.. بعض كلمات أجنبية مثل الفرنساوى والإنجليزى.. لكن العربى يحافظ على نفسه جداً جداً.. تعرف ليه؟! لأن القرآن موجود والقرآن يحمى اللغة العربية .. ماتنسوش ده.. دا مهم جداً.. وعلشان كده بقول لكم دايما يا ابنى أنتوا كأدباء مسئولين عن اللغة العربية لأنكم حماة هذه اللغة.. علشان كده دائما بقول لك وبأقول لغيرك من الأدباء الذين يتصلون بى أنكم مطالبين بأنكم تأخذوا من نهر اللغة العربية الفصحى القديمة ومن القرآن.. وتعيدوا تشغيلها تانى وتصبوها فى كتاباتكم علشان تبعثوا فيها الحياة.. علشان تنمو شجرة اللغة العربية ..فدائماً تطرح أوراق جديدة وفروع جديدة ...أفندم؟!

يحيى حقى فى الطابور!

كان بيننا موعد.. ذات صباح ذهبت إليه فى منزله بشارع الخليفة المأمون.. وجدته جاهزا.. ذهبنا إلى قسم مصر الجديدة.. كان يريد استخراج بطاقة الانتخاب الخاصة به.

دخل دوره فى الطابور فى الشارع خارج مبنى القسم.

كان صعبا على أن أرى أستاذى وشيخى يقف فى الطابور تحت وقدة شمس ذلك النهار.

قلت له: أستاذ يحيى. حاوقف لحضرتك تاكسى وانت تروح وأنا أخلص موضوع البطاقة دى.

قال هامسا: هدى نفسك.. اقعد على القهوة استنانى لما أخلص.. خلاص يا ابنى هانت..

على المقهى المجاور جلست أراقب الأستاذ يحيى وهو يرفع أوراقه فوق رأسه يتقى بها حرارة الشمس.. حتى انتهى من استخراج بطاقته.

فى طريق العودة قال يحدثنى: أنا كنت عاوز أقول لك إن دى تجربة إنسانية جداً وحلوة جداً.. ثم أنا أفرق إيه عن الناس دول.. أنا أحسن منهم فى إيه؟

ودار فى ذهنى سؤال: لهذا السبب إذن كان يحيى حقى يكتب عاموده الأسبوعى فى الصحف تحت عنوان «مع الناس».. ولهذا السبب أيضا كتب «ناس فى الظل».. ولهذا السبب أيضا كتب عن باعة الخبز فوق الأرصفة وباعة الجرجير والدقة فى الحوارى.

هكذا إذن كان الدبلوماسى والسفير ورئيس مصلحة الفنون ورئيس تحرير المجلة والوزير المفوض يعيش حياة الناس البسطاء.

معجب بيحيى وروميش!

زارنا الأديب الشاب الراحل يحيى الطاهر عبد الله ليقرأ إحدى قصصه على الأستاذ يحيى حقى.

كان فى غرفتنا يسلم ويتضاحك .. ثم استأذن فى الدخول إلى الأستاذ يحيى .

دخل.. ودخلت معه وجلست استمع إلى قصته..

وأخرج من جيبه أوراقاً طواها وأمسكها فى حجره..

قال: عندى قصة جديدة يا أستاذ يحيى ممكن «أجراها» لك؟!

قال يحيى حقى: اتفضل يايحيى.. وجلس متخذا وضع الاستماع العميق.

قال يحيى الطاهر عبد الله يخاطبنا قبل أن يقرأ: سأحكى لكم حكاية الصعيدى الذى هده التعب فنام تحت؟ حائط الجامع القديم.. ويبدو أن هذا كان عنوان قصته...

انتظرت أن يفتح أوراقه ليقرأ لكنه لم يفعل ومضى مواصلا: صحا على صرخة ووجدها فوق رأسه تبكى.. تلبس الأسود وتحمل بين يديها طفلا ميتاً.. قالت يافلان يا ابن فلانة.. هل ضاقت بك الدنيا الواسعة فلم تجد غير هذا المكان تزاحمنا فيه أنا وأولادى؟!

لقد قتلت ابنى يا قليل النظر.. وحتى يخف حزنى على ولدى عليك أن تفارق بيوتنا قبل أن يدركك صبح.

لت الصعيدى فى الكلام وعجن وقال:أتيت إلى المكان ولم يكن بالمكان غيرى. فصرخت فيه: لو لم أكن جنية مؤمنة بنت جنية مؤمنة بنت جنى مؤمن لركبت كتفيك عامين قمريين كما تركب الدواب يادابة!

كان يحيى حقى مستغرقا فى الاستماع .. ولاحظت أن يحيى الطاهر لم ينظر فى ورقه بل مضى مواصلا قراءة قصته من الذاكرة حتى انتهى منها!

رفع يحيى حقى رأسه معتدلا فى جلسته وقال موجها كلامه إلى يحيى الطاهر: حلو

قوى.. قوى يايحيى.. أهنيك عليها يا ابنى.. ثم نهض يصافحه مودعا وقال وهو يضحك : لكن أنا مالاحظتكش بتقرا من الورقه اللى فى ايدك!

قال يحيى الطاهر معقبا قبل أن يغادر الغرفة عائداً معى إلى غرفتنا ..يا يحيى بيه أنا أحفظ قصصى كما يحفظ الشعراء شعرهم!

كان يحيى الطاهر عبد الله رحمه الله نموذجا فذا لكتاب القصة عشاق هذا الفن النبيل.. وهكذا كان رأى يحيى حقى فيه أيضا..

كذلك كان الأديب الراحل محمد روميش واحداً من أعز أصدقاء يحيى حقى يرحمهما الله.

لقيته مرة عند الأستاذ يحيى حقى فى بيته فى شارع الشيخ الغزالى.. نهض يعانقنى ويحيينى ويسأل عنى فى كرم وحفاوة أهل الريف التى تعودناها دائماً منه.. وجلسنا.

ويبدو أنه كان بين الأديبين حوار سابق.. مضى محمد روميش مسترسلا فيه..

قال: نحن يا أستاذ يحيى أصحاب هذا الفن ولا أحد قبلنا!!

وباسترسال الكلام فهمت أن محمد روميش كان يرفض ما جاء فى مقال لأحد الكتاب العرب يشيد فيه برواية كتبها كاتب عربى آخر ويضعها فى قمة الأعمال الأدبية.. متجاهلا أعمالا أخرى صدرت فى مصر كان روميش يرى أنها أجدر بالحفاوة .

وراح الأستاذ يحيى يهدىء مَن ثائرة محمد روميش الذى ابتسم أخيرا ابتسامته الريفية الطيبة التى كنا نراها على وجهه كلما رأيناه .. وكان روميش شديد الغيرة على مصريته يرفض إلا أن تكون مصر دائما هى أم الدنيا..

واستأذنت لشأن من شئونى ..فاصطحبنى يحيى حقى يودعنى عند الباب قائلا وهو يصافحنى: على فكرة محمد روميش مش دايما مندفع كده.. لكن هو النهاردة واخداه الجلالة شوية.

أضاف قبل أن أنزل: بس عايز أقول لك حاجة .. محمد روميش على طول ما قرأت لأدباء كتبوا عن الريف المصرى.. محمد روميش احسن من كتب فى مصر عن الفلاح المصرى والريف المصرى.. مع السلامة..

الإنسان.. قبل الفنان!

حكى لى الصديق الأديب المعروف محمد إبراهيم مبروك حكاية كان شاهداً عليها تعود وقائعها إلى عام ١٩٦٦ قال: التقيت الاستاذ يحيى حقى ذات صباح من عام ١٩٦٦ بميدان طلعت حرب وكنت فى طريقى إلى مقهى ريش المعروف حيث كنا نلتقى نحن الأدباء وشباب الكتاب فى ذلك الوقت فوقفت معه أسلم وأسأله عن الصحة وأرحب به وأدعوه للجلوس معنا فى ريش لتناول فنجان من القهوة فاعتذر لارتباطه بموعد مع صديقنا القاص المتميز المرحوم يحيى الطاهر عبد الله..

ويواصل محمد إبراهيم مبروك حكايته: استأذنت الاستاذ يحيى حقى أن أبقى معه انتظاراً ليحيى الطاهر لرغبتى فى رؤيته ولم أكن رأيته منذ فترة.. تحدثنا عن يحيى الطاهر وظروفه الصعبة فى غربته وهو ابن الصعيد فى القاهرة وتناولنا بالمدح أعماله وتميزها حتى ظهر يحيى من بعيد فلوّح لنا مهللا بمرحه المعروف ثم عبر الميدان مسرعاً نحونا ليعانق الاستاذ يحيى حقى بحرارة شديدة ثم يصافحنى ويعانقنى فى ود حقيقى وكان هذا أحد طباع يحيى الطاهر الأصيلة فيه..

يقول مبروك: ثم بدأنا نسير وليس فى ذهنى أى مكان سنذهب اليه لأكتشف بعد هذا أننا كنا فى طريقنا إلى أحد محال الحلويات الشرقية الشهيرة بوسط القاهرة وكنا يوم وقفة عيد الفطر.. دخل الاستاذ يحيى حقى ودخلنا وراءه فيما وقف هو يشترى كعك العيد وبعض الحلويات الشرقية الأخرى وفى ظننا أنه يشتريها للبيت لنفاجأ به بعد دفع الحساب يحملها ليقدمها إلى يحيى الطاهر عبد الله مع تهنئة أبوية رقيقة بالعيد.

يضيف محمد إبراهيم مبروك: التفت أنظر إلى يحيى الطاهر لأرى دمعة تلمع فى عينيه فيما كان الاستاذ يحيى حقى يربت فوق كتفه فى حنان ثم يبدأ بعد ذلك موضوعاً

أدبيا وبعض أسئلة عن الأصدقاء وأحوالهم ليغير مجرى الحديث!! وكانت مفاجأة لنا كلينا.. يحيى الطاهر عبد الله وأنا.. ولم يكن يحيى الطاهر يعلم شيئاً عن سبب طلب الاستاذ يحيى حقى للقائه فى ميدان طلعت حرب متصوراً أنه ربما كان يريده لأى موضوع أو «مشوار» فى وسط البلد.. وكان استاذنا يحيى حقى يحس بصدق رأيناه وكنا شهوداً عليه أنه الأب الذى يجب أن يرعى أبناءه فى أدبهم.. وحياتهم أيضاً..

حكاية أخرى أكدها لى الصديق محمد إبراهيم مبروك وكان صاحبها الأديب القاص محمد روميش نفسه الذى كان فى ذلك الوقت يمر بأزمته الصحية الأخيرة التى انتهت بوفاته يرحمه الله وكان بعض الأصدقاء قد تطوعوا بمخاطبة وزير الثقافة فى شأن تسفير محمد روميش للسفر للعلاج فى الخارج وتطوع البعض بكتابة طلب كان على مكتب رئيس الوزراء الدكتور عاطف صدقى ينتظر التأشيرة بالموافقة ولما تأخرت موافقة رئيس الوزراء ـ يقول محمد إبراهيم مبروك ـ تدخل الاستاذ يحيى حقى وكان شديد الحب لمحمد روميش الذى كان يبادله نفس الحب.. وفى أحد لقاءاتهما الأخيرة أخبره الاستاذ يحيى حقى أنه علم من بعض أصدقائه أن علاج حالته ميسور ومضمون النجاح فى فرنسا وأنه ـ يحيى حقى ـ ينتظر وصول جائزة الملك فيصل التى كان الاستاذ يحيى حقى قد فاز بها ليدفع قيمتها إلى محمد روميش ليسدد بها تكاليف علاجه فى الخارج دونما انتظار للاجراءات الحكومية وبطئها المكتبى المعروف.. المدهش ـ يضيف محمد إبراهيم مبروك ـ أن محمد روميش هو الذى صرح له بما حدث بينه وبين الاستاذ يحيى حقى ولم يكن حقى قد تسلم الجائزة بعد.. ولم يتسلمها حتى وفاته بسبب بعض المشكلات الخاصة بالجائزة نفسها فى ذلك العام ولم يكن يحيى حقى يعلم شيئاً عن ذلك وكان روميش يعلم دقة الظروف المالية التى كان يعيشها الاستاذ يحيى حقى فى ذلك الوقت بعد اعتزاله الكتابة واعتكافه فى بيته بمصر الجديدة..

يقول محمد إبراهيم مبروك فى تأثر شديد: هكذا كان يحيى حقى.. ولم يكن ممكنا أن يكون غير هذا الإنسان والأب شديد الإنسانية رقيق المشاعر والاحساس..

تليفون عزيز باشا !

فى إحدى مناسبات إعلان جوائز الدولة التقديرية والتشجيعية اتفق الأستاذ يحيى حقى مع الشاعر الكبير الأستاذ عزيز أباظة على كتابة مقال فى المجلة عن أحد كتابنا وشعرائنا .. يتناول فيه أعماله بالنقد والتحليل بمناسبة فوزه باحدى جوائز الدولة..

وتأخر المقال..

وسأل الأستاذ يحيى أكثر من مرة عن مقال عزيز أباظة.. وكانت إجابتى بأنه لم يصل بعد!

واستمر الموقف هكذا معلقاً يوما أو يومين.. فطلب منى الأستاذ يحيى حقى ان اتصل بالأستاذ عزيز أباظة وأملانى رقم تليفونه بمنزله فى الزمالك.

وبالفعل اتصلت بمنزل الأستاذ عزيز أباظة.

كان أسؤالى فى كل مرة هو.. هو.. لا يتغير.

– الو.

فيجيب الصوت: أيوه

فأقول: الأستاذ عزيز أباظة موجود؟

فيجيب الصوت: لأ مش موجود.. ويغلق السماعة فأعاود الاتصال بعد فترة مرة ثانية: آلو..صباح الخير.

يرد الصوت: أيوه صباح النور.

– الأستاذ عزيز أباظة موجود؟

– لأ مش موجود!

ونصحنى زميلى الأستاذ رأفت فصيح أنا اتأكدة من الرقم أولا.. فطلبت الرقم فى اليوم التالى.

قلت :آلو..

رد الصوت: آلو.

قلت: صباح الخير.

رد الصوت: صباح النور.

قلت: هل هذا رقم كذا؟ قال الصوت: أيوه.

قلت : الأستاذ عزيز أباظة موجود؟ رد الصوت: مش موجود.. وأغلق السماعة!!

وسألنى الأستاذ يحيى حقى: طلبت الأستاذ عزيز أباظة؟

قلت:يا افندم طلبته أكثر من مرة!

قال فى صبر: وبعدين؟

قلت: يرد نفس الصوت ويقول مش موجود!

قال: هات التليفون هنا..

وأحضرت التليفون ووضعته أمام الأستاذ يحيى حقى الذى قال: أطلب الرقم أمامى.. فطلبت الرقم .

وسألت: الأستاذ عزيز أباظة موجود؟

فقال الصوت: لأمش موجود.. وأغلق السماعة؟

قلت: هكذا يا أستاذ يحيى كل يوم! فأغرق الأستاذ يحيى حقى فى الضحك وقال: يا ابنى ما اسموش الأستاذ عزيز أباظة.. أنا أسف.. أنا نسيت أقول لك.. معلهش.. أطلب النمرة تانى واسأل عن عزيز باشا أباظة .

طلبت الرقم للمرة الأخيرة أمامه فرد نفس الصوت .

قلت: صباح الخير.

قال : صباح النور.

قلت: عزيز باشا أباظة موجود؟

قال نفس الصوت الذى كنت أسمعه قبل ذلك :نعم.. أنا.

قلت: يحيى حقى يسألك.. المقال جاهز؟!

قال: جاهز من مدة طويلة.. ابعث حالا من يستلمه منى..

وبالفعل أرسلنا شعبان الساعى إلى منزل عزيز باشا أباظة بالزمالك فعاد الينا بالمقال في وقت لايذكر!!

وقال يحيى حقى معقبا: يا ابنى افهم.. لازم تخاطب الناس بأقدارهم اذا كانوا هم يريدون ذلك .

وفهمت فى ذلك اليوم شيئاً وتعلمت درساً جديداً فى كيفية التعامل مع الناس.

أنا الدكتور!

مر علينا فى المجلة ذات صباح الدكتور عبد الحى دياب.. وهو أديب وكاتب وعقادى معروف (من تلاميذ الأديب الراحل عباس العقاد).. وترك لنا مقالا عن المرأة فى شعر العقاد.

كان عبد الحى دياب إنسانا مرتفع الصوت لايمشى إلا وتصاحبه ضجة كبيرة.

سأل الأستاذ يحيى بصوته عالى النبرات أن يقرأ له مقاله.

فأشفق الأستاذ يحيى حقى علينا وعلى نفسه.. فقال له وهو يصافحه مودعا: اطمئن يا دكتور.. احنا حنقرا المقال كويس قوى.. قوى ابقى عدى علينا فى أى وقت.

ومرت أيام.. كان الأستاذ يحيى حقى قد قرأ المقال فلم يعجبه.. فدفع به الى الدكتور شكرى عياد فكان رأيه مثل رأى الأستاذ يحيى.. ثم دفعه إلى الأستاذ فؤاد دوارة فأجاب بنفس الرأى قائلا: إنه مجرد عرض لبعض قصائد وأبيات من شعر عباس العقاد فى المرأة وليس به أكثر من استعراضها دون تحليل أو رؤية..

وبدا أن يحيى حقى قد وقع فى ورطة كبيرة.. فكيف يعيد هذا المقال إلى الدكتور عبد الحى دياب دون مشكلة؟!.. فعبد الحى دياب لن يتراجع بسهولة ولن يقبل أن يوصف مقاله بعدم صلاحيته للنشر!

وتفتق ذهن الأستاذ يحيى حقى عن حل!

كان الدكتور عبد الفتاح الديدى قد انضم حديثا إلى أسرة المجلة.. وهو أديب وفيلسوف وباحث عقادى معروف أيضاً من نفس جيل الدكتور عبد الحى دياب.

قال يحيى حقى وهو يغادر المجلة: ادى المقال ده للدكتور عبد الفتاح الديدى وخليه يكلمنى.. ثم ضحك ضحكة ماكرة...

ولما حضر الدكتور الديدى قلت له ما طلبه منى الأستاذ يحيى حقى فاتصل به فى البيت يسأله ماذا يريد؟!

قال الأستاذ يحيى حقى: يا دكتور ديدى أنا محتار فى مقال أخونا الدكتور عبد الحى دياب وقلت أحسن واحد يفهم فيه هو إنت.. فاقرأه أرجوك وشوف صلاحيته للنشر من عدمها ..فإذا رأيتة صالحاً للنشر اعطيه لسامى وإذا لقيته غير صالح للنشر أرجوك رجعه للدكتور عبد الحى دياب مع اعتذار رقيق.

قال عبد الفتاح الديدى قبل أن يغلق السماعة: وهو كذلك يايحيى بيه.

ثم سألنى عن المقال فدفعته إليه.

جلس الديدى من فوره على الكنبة الجلد السوداء فى غرفتنا.. وقرأ المقال مرة ثم مرة. وقام يضحك متعجباً وساخرا من جرأة عبد الحى دياب على أن يسمى ماكتبه مقالا فى المرأة عند العقاد!

سألته إن كان سيترك المقال معى لأعيده للدكتور عبد الحى دياب! فقال :لأ.. أنا حارجعه له بنفسى.

وجاءنا عبد الحى دياب بعد أيام داخلا من باب المجلة قائلا: انا الدكتور عبد الحى دياب.. فى حد موجود فى المجلة؟

فخرج اليه الدكتور الديدى وقال: أنا يا عبد الحى تعال.

قال عبد الحى دياب موجها كلامه إلىّ: أنا كنت تركت عندكم مقال عن المرأة فى شعر العقاد وتأخر كثيرا.

قولوا لى إذا كنتم حتنشروه ولا لأ..

وقال عبد الفتاح الديدى: مقالك معى يا عبد الحى!

فسأله عبد الحى مندهشا: مقالى معاك بيعمل إيه؟!

قال الديدى: الأستاذ يحيى حقى طلب منى أن أقرأه وأحدد صلاحيته من عدمها.. وأنا بقول لك مقالك تروح تقطعه أحسن ما نرميه.

ونشبت مشادة بين الاثنين أنهاها الدكتور الديدى قائلا بأنه لاداعى للكلام.. فالكل يعرفون كيف حصل الدكتور عبد الحى دياب على الدكتوراه فى ليلة انقطع فيها التيار الكهربائى لمدة ست ساعات عن الجامعة!!وهكذا وبهذه الطريقة وحدها حصل الدكتور عبد الحى دياب على درجة الدكتوراه يأساً من عودة التيار الكهربائى!

مدّ الدكتور عبد الحى دياب يده وتناول مقاله.. وغادر المجلة ولم يعد بعدها إليها أبداً!!

مشكلة!

كانت بحق مشكلة واجهت أديبنا الكبير يحيى حقى.. وهى أين وكيف يجد صديقات يجدن الفرنسية لصحبة قرينته مدام چان؟!

شكا لى هذا الأمر مرة قائلا: ليس بين من أعرفهم من أصدقائى من له زوجة أو أخت فى مثل سن چان وتتحدث الفرنسية سوى عدد محدود جدا .. وهن لسن دائما حاضرات.. فبعضهن يكن مسافرات أو تأخذهن مشاغل الحياة اليومية كما تعلم.

سألته بدافع الفضول: مثل من يايحى بك؟

قال: عدد محدود جدا قلت لك.. مثل مدام الدكتور حسين فوزى ومدام أنور لوقا ومدام الدكتور عطية أبو النجا..

أضاف فيما يشبه الأسى: أما ماعدا ذلك وإن كن تصلحن بالفعل صديقات لها الا أن حاجز اللغة يقف حائلا بينهن.. مثل زوجتك التى تجيد الإنجليزية فقط .. ورصيد چان فيها لايساعدها.. ومثل حرم الشيخ شاكر التى تحبها بشدة ولكنها لاتعرف غير العربية .. وأظل أراقب أنا - يقول هو - تفاهمهن بالإشارة وهز الرؤوس وأتحسر.. لهذا - يضيف متحسرا - تجدنى أخلق الوقت الذى أكون فيه معها لألعب دور الصديق وأظل أكلمها فى شتى شئون الحياة التى قد تهمها هى ولكنها بالقطع لا تهمنى.. لكن يخفف من حدة غربتها هذه التى أحس بها وتمزق قلبى أننا نمضى الوقت أحيانا فى زيارة المعارض الفنية أو حضور الأوبرا والمسارح والكونسيرات والاستماع إلى فرق الموسيقى التى تزور مصر.. ولولا هذا لكانت چان فقدت عقلها من شدة الوحدة والشعور بالاغتراب!

نقر بأصابعه على المنضدة أمامه ثم ابتسم ملتفتا نحوى يقول: وبالمناسبة.. ماتطلع

لأخونا على الراعى (رئيس هيئة المسرح فى ذلك الوقت) تسأله يشوف لنا دعوة والا اثنين لمسرح أوكونسير أو باليه يساعدنا شوية!

أضاف قبل أن أنصرف: واسأله طبعاً عن حاجة لك إنت كمان.. مش بتحب المسرح برضه؟

قلت وأنا أغادر المكتب فى طريقى إلى الدور السابع حيث مكتب الدكتور على الراعى: طبعا

الدبلوماسى..
ابن البلد !

الدبلوماسى.. ابن البلد!

حكاية يحيى حقى طويلة.. تبدأ مع جده إبراهيم حقى وتستمر- رغم رحيله- حتى كتابة هذه السطور .. ولعلها تستمر بعد ذلك أيضا.. وطويلا بمقدار ما أثر فى جيله والأجيال التى تلته وستليه.

فى مقال عنه نشره الأديب الراحل صالح مرسى فى مجلة الهلال عدد أغسطس من عام ١٩٧١ كتب يحكى مشوار حياة يحيى حقى منذ ماقبل بداية الأديب الكبير الذى عرفناه جميعاً وحتى رئاسة تحرير مجلة المجلة..

عن أصول يحيى حقى يقول صالح مرسى:

تبدأ حكايتنا منذ قرن من الزمان، وبالتحديد فى عصر الخديوى اسماعيل.

جاء إبراهيم حقى إلى مصر من الأناضول وهو يحمل فى جوانحه أحلاما جد صغيرة، كل ما نستطيع أن نعرفه عنه اليوم أنه جاء من شبه جزيرة (نورة).. وكل ما كان يعرفه هو عن مصر، أن فيها الست حفيظة!!

كانت الست حفيظة واحدة من اللاتى عاد بهن إبراهيم باشا، ابن محمد على باشا، من حرب المورة.. وكان المقام قد استقر بها مع الأيام فى بلاط إسماعيل باشا، وكانت قد أصبحت خازندارة فى قصر هذا الخديو، وكان فى هذا الكفاية، كل الكفاية، لكى يعين ابراهيم حقى -قريب الست حفيظة - فى سلك الإدارة فور وصوله إلى أرض مصر!

وسرعان ما استقر الأمر للشاب الذى تزوج وأصبح أبا، كان إبراهيم قد عمل لفترة فى دمياط، وكان قد أصبح أبا لثلاثة أولاد، هم: محمد، ومحمود طاهر، ثم كامل.. وعندما كبر الأبناء وشبوا عن الطوق، كان قد انتقل من دمياط إلى المحمودية، وكان قد رقى فى سلك الإدارة حتى وصل الى وظيفة تعادل وظيفة وكيل مديرية، وكان قد أصبح

مشرفا على حوض ترعة المحمودية التى تصل النيل بالإسكندرية، وكان أيضا قد أصبح يمتلك مائة فدان.

***

وفى بلاد مصر، فى مدنها وقراها، تناثرت تلك العائلات التركية الصغيرة لتعطى للمجتمع المصرى طعما خاصا وجديدا، وكان منهم الصيادلة والموظفون، كان منهم الفقراء والموسرون، ورغم امتزاجهم الشديد بالحياة المصرية، الا أنهم كانوا مثل أملاح غير قابلة للذوبان، عاشوا حياتهم داخل بيوتهم، مع بعضهم البعض، مجتمعات صغيرة مغلقة، وأخذوا ينسجون من تفاصيل حياتهم الصغيرة وأحداثها، تراثا عائليا يقفون فوقه متطلعين نحو مستقبل غامض.

وفى المحمودية لم تكن عائلة إبراهيم أفندى حقى هى العائلة التركية الوحيدة، كانت هناك أيضا عائلة السيد حسين الموظف بالتلغراف، وكان السيد حسين هذا متزوجا من سيدة من أصل أرناؤطى هى الست (عديلة).. وكما كان لإبراهيم أفندى ثلاثة من الأبناء، كان للسيد حسين بنتان وولد.

ولقد كبر الأولاد مع الزمن.. وقدر لمحمد حقى - الابن الأكبر لإبراهيم أفندى - أن يلتحق بالأزهر زمنا، ثم يتركه ليلتحق بمدرسة فرنسية، ثم يتركها - وقد أتقن القراءة والكتابة وكان فى هذا الكفاية - ليلتحق بوظيفة صغيرة فى وزارة الأوقاف.

كبر الأولاد وأصبح محمد حقى موظفا فى وزارة الأوقاف، كما أصبح الأبن الأوسط ـ محمود طاهر حقى - أديبا وقصاصا وكاتبا وصاحب (الجريدة الأسبوعية) ونديما من ندماء الخديوى عباس حلمى الثانى.

كبر الأولاد وأراد محمد أن يتزوج، وكان طبيعيا أن يختار له أبواه إحدى بنتى السيد حسين والست عديلة، واختارا له (سيدة)، التى كانت تشبه أمها إلى حد بعيد فى التدين والعبادة، تزوجها وكانت حياتهما معا سعيدة وشاقة، وأنجبت له الست (سيدة) عددا وفيرا من الأولاد والبنات، أنجبت: إبراهيم واسماعيل ويحيى وزكريا وموسى وفاطمة

وحمزة ومريم.. ولقد توفى حمزة ومريم وهما طفلان، كما توفى عدد آخر لا بأس به من الأطفال، قبل أن يبلغوا من العمر شهورا.

وأصبح لمحمد حقى عائلة صغيرة، دخلت فى عداد تلك العائلات التركية التى كانت تتناثر فى مصر هنا وهناك، وكانت تكون فى مجموعها مجتمعاً آخر داخل المجتمع، مجتمعا له أخباره ونوادره وحكاياته.. وكانت كل عائلة من هذه العائلات تتميز بميزة تتفوق بها على العائلات الأخرى وتشتهر.. وكانت هذه المميزات الصغيرة، علامات واضحة لأفراد العائلة، علامات تحولت مع الزمن إلى براعات حقيقية، وتركزت هذه البراعات فى الفن والأدب والرياضة.

من العائلات التركية كانت هناك عائلة(عمرو) وأنجبت هذه العائلة عبد الفتاح عمرو باشا، آخر سفير لمصر فى لندن قبل الثورة ، وواحد من أبطال الأسكواتش راكيت، لعبة الكرة المقذوفة.

وكانت هناك أسرة لاشين، التى اشتهرت بالدعابة والسخرية من كل شىء حتى من أنفسهم.. والتى أنجبت واحدا من رواد القصة المصرية الحديثة، هو محمود طاهر لاشين.

أما عائلة حقى فقد اشتهرت وسط هذا المجتمع المغلق الذى يتناقل أفراده أخبار بعضهم البعض- مهما تفاوتت درجات غناهم أو فقرهم- بالدقة الشديدة فى اختيار اللفظ المناسب فى مكانه المناسب.. ولقد أنجبت هذه العائلة محمود طاهر حقى صاحب (عذراء دنشواى) ، ثم أنجبت يحيى محمد إبراهيم حقى، أحد عمالقة القلم العربى الحديث.

كان يحيى حقى هو الابن الثالث لمحمد أفندى حقى.

كان طفلا صغير الحجم، كبير الرأس، جميل الوجه، هادىء الصوت، حساس النفس.. فتح عينيه على أم هى كل شىء فى البيت، شديدة التدين، تختار أسماء أبنائها من صفحات القرآن، إذا حملت واقترب موعد الوضع فتحت المصحف على أى صفحة، واختارت أول اسم يصادفها، فجاءت أسماء أبنائها جميعا من أسماء الأنبياء، عدا حمزة عم الرسول، وأسماء البنات من بنات الأنبياء أو أمهاتهم.

يفتح يحيى عينيه على حقيقة شديدة الغرابة.. أن جدته لأمه -الست عديلة- أمية، لا تعرف القراءة ولا الكتابة، لكنك إذا أعطيتها مصحفا، وفتحته على أى صفحة فيه، وأشرت بيدك على أية آية من آياته، انطلقت تقرأ الكلمات بسهولة وعذوبة أيضا.

يفتح يحيى عينيه على هذا المجتمع التركى الذى لايتحدث التركية أبدا، يفتح عينيه ليسمع حكايات الست حفيظة والخديو إسماعيل ومحمود طاهر لاشين والخديو عباس، ولا يسمع من اللغة التركية غير الشتائم التى يلفظها الأب أو الأم فى لحظات غضب، كل ما عرفة عن لغة أجداده كلمات مثل: أدب سيس، خرسيس، طانماز، سكتر بره.

ويفتح عينيه فإذا اللفظ المناسب فى المكان المناسب هو ذروة المنى.. تسمع أذناه صوت الأم وهى تقرأ عليهم صحيح البخارى، أو فقرات من الغزالى أو مقامات الحريرى.. يتفتح وجدانه على أب مفتون بالمتنبى، يلقى قصائده على الأولاد، ويهتز طربا وسعادة لكلمة جاءت تماما فى مكانها الصحيح.. غير أن المتنبى لم يكن هو الشاعر الوحيد الذى ظللت أبياته سماء البيت، فلطالما تخاطفت أيدى الأولاد الجرائد والمجلات إذا علموا أن بها قصائد جديدة لأمير الشعراء، بعد المتنبى: (ظلل البيت دائما شعر أحمد شوقى).

وكان أكثر الأولاد صمتا وعشقا للكلمة، وكان أكثرهم حفظا لأبيات الشعر ورغبة فى سماع القصص، هو يحيى.

ولقد قدر لهذا الطفل الثالث فى عائلة محمد أفندى حقى الموظف بالأوقاف، أن يصبح بعد ذلك.. يحيى حقى!!

***

ولد يحيى محمد إبراهيم حقى فى يوم ٧ يناير عام ١٩٠٥.

ولد ليجد أخوة قد ولدوا من قبله، وأخوة وأخوات جاءوا إلى الدنيا من بعده، ولد بحارة الميضة فى السيدة زينب، فى بيت ضئيل الإيجار تملكه وزارة الأوقاف حيث كان الأب يعمل.. ورغم أن إبراهيم أفندى حقى كان قد ترك لأبنائه الثلاثة ثروة لا بأس بها، الا أن هؤلاء الأبناء لم يحسنوا إدارة الأرض، فكان وجودها مثل عدمه، وتبخرت، ولم يعد محمد أفندى حقى يملك من الدنيا سوى مرتبه الصغير، وعددا وفيرا من الأولاد والبنات.

المرتب الصغير، وسكنى الحوارى، مع الانغماس الشديد فى الأدب وحب الشعر بالذات، هى علامات الطفولة والصبا.

كان الأب قد ترك كل شىء لزوجته تتصرف فيه كيفما تشاء، كانوا غرباء، ولكنهم كانوا مصريين، كانوا أتراكا لكن أحدهم لم يشعر يوما أنه أحسن من الآخرين، حتى الخدم فى البيت، كانوا يجلسون معهم إلى الطعام كلما آن أوانه.. تراث العائلة وإيمانها ويقينها، أنه لا فرق بين عربى وتركى الا بالتقوى.

وإذا كان التعالى والعنطزة قد نسبا إلى الأتراك طوال تاريخهم فى مصر، الا أن هذا البيت لم يعرف الفروق الطبقية أو الجنسية أبدا.. ويحار المرء فى كنه هذا الأمر، هل هو مكتسب بالفقر أو هو طبع أصيل.. وسواء أكان الأمر هذا أم ذاك، فإن واحدا من أبناء محمد أفندى حقى لم يشعر بأى فرق فى الجنس بينه وبين الآخرين، أو على الأقل هذا ما نشأ عليه ذلك الطفل الغريب الذى ارتدى النظارة الطبية فى وقت مبكر مثله مثل كل أفراد العائلة.. إن ضعف النظر وراثى فى العائلة، تماما كالقراءة، تماما كالاحساس المطلق بالمساواة بين البشر، حتى أن كلمة مسيحى أو يهودى لم تكن تثير عنده أى معنى أو فرق، ولقد ظل الأمر على هذا حتى قامت دولة إسرائيل.

كاد هذا الطفل يوما وقد شب عن الطوق وقرأ ودرس وسافر وتعلم ورأى وطاف، يحسب نفسه مواطنا عالميا، إحساس حر تماما، كأنه طير يحلق فى أجواء الأرض جميعا دون أن يطالبه أحد بجواز سفر.. لكنه ارتد على عقبيه بعنف شديد، ارتد ارتدادا رهيبا ومفزعا فى نفس الوقت، ومع ارتداده هذا أصبح متعصبا أشد التعصب، وأصيب بنكبة روحية عظمى، وانهدم كيانه الفردى.. عندما قامت دولة إسرائيل..!!

هل نسبق الأحداث ونسترسل مع استرساله الحالم القافز من موضوع الى آخر؟.. أو نعود إلى بذرة العلم الأولى وسط بحور المتنبى وشوقى، ورحلة المدارس المجانية، ونكبات المدرسة الابتدائية، ويده الميتة لخمس سنوات؟!

***

كانت مدرسة أم عباس الابتدائية- أم عباس باشا الأول خديو مصر- تجمع أولاد الفقراء، كانت مدرسة مجانية تتبع وقفا، ولم يكن فى استطاعة الأم أن تدبر أمر تعليم

أولادها إلا عن هذا الطريق، وكان التحاق يحيى بالمدرسة الابتدائية نكبة أحاقت بطفولته.. إنه يرفض حتى اليوم وقد مضت سنوات تزيد على النصف قرن، أن يتحدث أحد عن المدارس الابتدائية بتلك النغمة الرومانتيكية التي يتحدث بها البعض.. انتقل من الحنان والفهم والتفهم والشعر في البيت، الى شيء غليظ قاس أمات يده.

وطوال السنوات الخمس التي قضاها في هذه المدرسة، لم يفعل بيده شيئا، كانت ضربات العصا التي يؤدب بها قد تركت في نفسه أبلغ الأثر.. ولا ترتدوا إلى الماضي تاركين الحاضر جريا وراء الأسباب أو النتائج، إن الماضي عنده جزء من أساس الحاضر والمستقبل معا، كيف عاني وكيف تعذب عذابا مهولا وهو يحشر دماغه بمعلومات لا يفهم ولا يستطيع أن يفهم منها شيئا، إنه لم يعرف مامعنى رى الحياض والرى الدائم، إلا بعد أن تخرج في كلية الحقوق وذهب الى الصعيد.. ولقد كان جهاده الأعظم- بعد أن ترك مدرسة أم عباس- أن يتخلص من تلك الآثار المدمرة التي خلفتها هذه المدرسة البغيضة في نفسه.

كانت مدرسة أم عباس تتبع نفس الوقف الذي كان يتبعه سبيل أم عباس القائم في الصليبة حتى اليوم، ورغم أنها مدرسة مجانية، إلا أنها كانت المدرسة التي علمت مصطفى كامل باشا.

كان مصطفى كامل يسكن بيتا قريبا من حي الصليبة، وعندما التحق يحيى بهذه المدرسة، كان كل أساتذة الزعيم قد تركوها إلا واحدا، وكان من حظه أن يجلس الى الشيخ عبد المنعم تلميذا، تماما مثلما جلس إليه مصطفى كامل. كان الرجل يلقى من الجميع تبجيلا وتعظيما، فلقد كان يوما مدرسا للزعيم، وكان إذا دخل الفصل انحبست أنفاس الطفل وهو يرقبه في إعزاز واحترام.. وظل يحيى طوال خمس سنوات يرتدى مريلة كانت المدرسة تصرفها للتلاميذ، مكتوبا عليها بخط أخضر: مدرسة أم عباس الابتدائية.. خمس سنوات قضاها في عذاب، خمس سنوات لأنه رسب في السنة الأولى ثم لم يرسب بعدها أبداً، ظل ينجح وينجح وكأنه يفر، وفي عام ١٩١٦ نال الشهادة الأبتدائية، وكان في الحادية عشرة من عمره.

كانت تتبع الوقف مدارس أخرى، منها المدرسة الإلهامية الثانوية والمدرسة الإلهامية الصناعية، فالتحق يحيى حقى بالمدرسة الإلهامية الثانوية.

وكانت المدرسة الثانوية فى تلك الأيام أربع سنوات فقط، يحصل التلميذ بعد العامين الأولين على شهادة الكفاءة، ثم يحصل بعد ذلك على البكالوريا.

وفى المدرسة.. بدأ يختلط بالعيال:

خرج من جنة البيت إلى حيث أولاد الفقراء والحوارى بكل ما فى مجتمعهم من غرائب، هبط من جنة اللفظ وقدسية الدين ومثالية الفكر إلى واقع شديد المرارة.. فى صمت كان يتعذب، وفى صمت كان يتلقى الصفعات النفسية، والذين يريدون أن يعرفوا ما هى مصر عليهم أن يهبطوا إلى القاع، هناك تكمن عوامل كبت هصرت صدر هذا الشعب، ولكم تحمس ذات يوم حماسا عظيما عندما اجتمع لفيف من التلاميذ وكونوا جمعية اسمها (جمعية الأخلاق الفاضلة)، ولقد كونت هذه الجمعية خصيصا لكى تحمى تلميذا صغيرا جميل الوجه من محاولات الكبار لاغتصابه.. ولكن ما أعظم خيبة الأمل عندما اكتشف صبينا أن أعضاء هذه الجمعية بالذات، هم الذين كانوا يريدون الاعتداء على التلميذ المسكين!!

ومنذ خرج يحيى من بيته إلى الشارع إلى المدرسة، كانت مصر هى مبتغاه، كانت مثل كنز مجهول أراد الكشف عن أسراره، ومنذ عرف الطريق إلى الشارع إلى المدرسة، أصبحت (الصداقة) هى عصب حياته وأهم عناصرها على الاطلاق.. ومنذ أيام أم عباس، عاش يحتفظ بصداقة محمد عصمت، ومحمد لبيب الجبالى، وما زال قلبه يذكر بالحنين المرحوم مصطفى حسن.. غير أن أهم الأصدقاء على الإطلاق كان شقيقه إبراهيم.. دليله فى الطريق الى المعرفة.

حصل يحيى على الابتدائية فى عام ١٩١٦، وحصل على الكفاءة فى عام ١٩١٨، وأصبح عليه لأول مرة فى حياته أن يختار بين طريقين.

***

إيه يا أحلام الصبا، ولكم تمنى صبينا وهو فى الرابعة عشرة من عمره أن يصبح

طبيبا، كم عشق اكتناه أسرار ذلك المجهول الكامن داخل رأس الانسان، والذى اسمه العقل، كم أراد بكل ما فى قلبه من رجاء وأمل أن يتفرغ للبحث عن أسباب علله وأمراضه، كم عذبته كلمة مجنون مخبول، وها هو يقف بعد الكفاءة فى مفترق الطرق، طريق العلم، وطريق الأدب.. وكان عليه أن يختار.

«... لقد شعرت وأنا فى هذه السن المبكرة أن الأمراض النفسية والعقلية أشد خطرا على المجتمع من أى مرض آخر.. إن وظيفة كل مجتمع وسبب وجوده أيضا، هى البحث عن الطاقات الكامنة فيه وإفساح المجال أمامها.. سباق لابد من حشد كل القوى للانتصار فيه، إن الأمراض النفسية هى التى تعرقل هذا الانطلاق، أكثر من الأمراض البدنية».

ويقف فتانا بعد الكفاءة حائرا، تتمزق نفسه رغبة فى الالتحاق بالقسم العلمى، وتتمزق نفسه خوفا من الرسوب، وقد شاع بين الناس أن النجاح فى القسم الأدبى مضمون.

هل يغامر؟

وماذا ستكون نتيجة المغامرة لو أنه التحق بالقسم العلمى ورسب؟! من أين تدفع الأسرة الفقيرة مصروفات عام آخر؟ أراد أن يصبح طبيبا لإيمانه الشديد بأن المهنة الحرة هى أفضل عمل للإنسان فهو فيها سيد نفسه.. أراد أن يصبح طبيبا لأن فى نفسه غاية يريد أن يحققها، هى إسعاف هؤلاء الذين فى حاجة إلى المساعدة..و.. ولكن: (لأجل ألا أقع فى وصمة السقوط أو احتمال السقوط، التحقت بالقسم الأدبى)!

أى رغبة تلك التى كانت عند الصبى فى البحث خلف العقل البشرى وسبر أغواره؟

انتقل من المدرسة الإلهامية إلى المدرسة السعيدية وتلك الرغبة تتحول عنده- بمرور الوقت- إلى موهبة غريبة.. ولطالما التقى بعد ذلك بانسان فناداه باسمه دون أن يعرفه أو يراه أو يسمع عنه من قبل، ظاهرة لفتت نظره وأدهشته وربما أفزعته، لم تحدث مرة أو مرتين لكنها تحدث دائما، ينطق اسم الرجل أو المرأة دون وعى فإذا الأسم هو هو، وإذا به حائر: ما مصدر هذه المعرفة؟

يعود إلى نفسه ويفحصها ويقف أمامها محاولا الوصول الى شىء.. هل كان يشعر بالغربة؟

سؤال يقفز في غير مناسبة لكنه سؤال موجود..

إطلاقا لم يشعر بالغربة رغم أنه كان يعرف جيدا وبوعى أنه من أصل تركى: (هذا مثل عجيب جدا على قدرة مصر على امتصاص العناصر الطارئة عليها..)، ورغم أن هذه ظاهرة معروفة تاريخيا، إلا أن ثمة ظاهرة اجتماعية أخرى وهى أن : (الجديد فى الوطنية، أشد تعصبا لها من الأصيل فيها) .. هكذا أحب فتانا مصر حبا بلغ حد الوله.. وقف منها موقف العاشق الباحث عنها أبدا، لكنه لم يشعر حيالها بالغربة، بل كان يشعر بالانتماء.

غير أن بلوغ هذه (المصرية) فى نفس فتانا المتوقد العينين كان له ثمن، وكان الثمن فادحا.. فرغم إحساسه هذا كان ينتمى الى أسرة قليلة الاختلاط بالناس، بالمصريين بالذات، حتى الزيجات التى تمت فى هذه الأسرة تمت فى نطاقها أو من أسر تنتمى إلى أصل تركى.. الفكاك من هذا الأسر كان مثل خلع الضرس أو الظفر، وها هو يحاول الغوص فى طين مصر بكل ما يستطيع من حب ووجد: (أنت لو عصرتنى فى عصارة قصب فلن تخر منى الا نقط مصرية تماما).

غير أن المصيبة، أن ما من أحد من المصريين كان يقابله إلا ويناديه: يا خواجا.. واذا ما صادفه بائع الجرائد نادى على (البورص)؟

دخل فتانا المدرسة السعيدية ملتحقا بالقسم الأدبى، وحصل على البكالوريا فى عام ١٩٢١، وكان ترتيبه الخمسين على القطر المصرى كله، ولذلك فقد التحق بقمة التعليم الجامعى وقتها.. بمدرسة الحقوق.

دخل الحقوق لأنه كان مفروضا عليه أن يدخل الحقوق.. إن الخمسين الأوائل فى البكالوريا هم السعداء دائما بهذا الاختيار، دخل الحقوق وقد تشبعت نفسه بمبادىء الحزب الوطنى رغم تعلقه بسعد والثورة، وكانت جريدة (اللواء) هى جريدة الأسرة، دخل الحقوق وقد هصرت الأحداث نفسه واحتفظ عقله بيوم حزن عظيم ساد البيت.. يوم كان فى التاسعة من عمره وشبت الحرب العالمية الأولى بين إنجلترا وألمانيا، يوم دخلت تركيا الحرب ضد الإنجليز فأعلنت الأحكام العرفية ثم أعلنت الحماية فى يوم شديد السواد، ثم خلع الخديو عباس حلمى الثانى وهو فى استانبول، ونصب السلطان حسين

كامل، ثم مات حسين كامل، ووضع بدلا منه السلطان أحمد فؤاد، وبعدها بشهر وضعت الحرب أوزارها.. وبعد عام واحد اندلعت ثورة ١٩١٩.

مع توالى الأيام والأحداث كانت نفس الصبى تنمو وتتفرج ثم تشارك وتحب، طوال سنوات ما قبل الثورة والحياة فى البيت تسير كما اعتادت أن تسير، القراءات والأشعار وضعف النظر والمناقشات والترقب والعداء الشديد للإنجليز، وكان لابد من حدوث شيء..

مرات ومرات وهو يصحب أباه وأخويه إبراهيم وإسماعيل إلى الأزهر، أو إلى بيت الأمة أو شادر مقام فى مكان فسيح، تلهب الدماء فى عروقه خطب الخطباء، تبهره أصواتهم المجلجلة، ونبراتهم تأخذه أخذا لينا أو أخذا عنيفا. وتصبح الخطابة عنده هواية، ثم تصبح مع مرور الأيام علما له قوانين، وفنا له نجوم.. كان إبراهيم أكبر أخوته وأكثرهم إدراكا للأمور، وكان قد بدأ ينغمس مع الثوار فى علاقات، واتصل ببعض طلبة الطب الذين كان منهم الدكتور محمد كامل حسين وعبد الحى كيرة.. كان الإنجليز إذا ما دعا الوفد إلى اجتماع فى الأزهر سدوا كل النوافذ إلى الطريق حتى لايذهب إليه الناس، ولايستمعوا إلى خطباء الثورة العظام، لكن صبينا كان يصحب أخويه وأباه فى طرق ملتوية وحارات ودروب حتى ينفذوا من الحصار المحكم، ويدخلوا الأزهر، ويشتعلوا حماسا، ويتمتعوا بخطب «كيرشة» خطيب الثورة، وأبو شادى.

مع الناس كانوا يرددون الأناشيد الوطنية، ولقد حفظ الأب والأبناء، وربما الأم نشيد:

رسول السلم إلى مصر..

أنثر فى الطريق لنا الزهر..

واذا ما دخل البيت منشور سياسى تخاطفته أيدى الأولاد والأم والأب جميعا ليقرءوه بشغف، وعندما سارت المظاهرات الدامية لتكتسح شوارع القاهرة، سار يحيى فى بعضها، وأطلق الرصاص على المتظاهرين، وجرى مع الذين جروا، لكنه كان صغيرا، فلم يشترك فى إحداها اشتراكا فعليا.

هل نذكر حكاية تلك الليلة التى استمع فيها إلى سعد زغلول وهو يخطب فى بيت

الأمة؟.. هل نحكى حكاية حكاها هو من قبل فى كتابه (خليها على الله)؟ كم أتمنى أن أدعوه للمبارزة وأدخل التجربة، ولكن هيهات.. إنى خاسر لامحالة، فلا داعى لاظهار العجز مفضوحا أمام الناس.

فى تلك الأيام قرأ كل ما كتبه عبد الله النديم، وكل ما خطه قلم مصطفى كامل، وكل ما كتب وذكر وروى عن حادثة دنشواى.. دخل مدرسة الحقوق وقد تشبع وجدانه حتى الثمالة بحب مصر، وعندما حدث الخلاف الشهير بين سعد وعدلى، بين الوفد والأحرار الدستوريين، اجتاحت البيت موجة عارمة من الكآبة.. لم يقفوا فى جانب ضد جانب، فهم فى الأصل وطنيون مع حزب مصطفى كامل، لم يقفوا مع سعد ضد عدلى، ولا مع عدلى ضد سعد، لكنهم ذاقوا مرارة خيبة الأمل، وشعروا: (زى ما تكون حاجة قشتنا...).. وشاعت كلمة كان لها وقع المر على نفسه تقول: (اتفق المصريون على الا يتفقوا..)

وقبل أن يدخل مدرسة الحقوق كان قد التقى بمؤلفات مصطفى لطفى المنفلوطى وجبران خليل جبران، وكم جرت دموعه مع ماجدولين وغادة الكاميليا وتحت ظلال الزيزفون، كم ترنم بشعر المهجر وتعرف على قصيدة (أعطنى الناى وغنى) وهو فى الخامسة عشرة من عمره. سنوات المدرسة تحصيل ودرس، وفى فترات الراحة متعة القراءة والمناقشة. الصغير يحاول أن يلحق بالكبير، وإذا كان يحيى قد قرأ الأجنحة المتكسرة والوردة البيضاء، فإن أخاه إبراهيم كان قد سبقه الى تشارلز ديكنز ورسائل لأم، وقبل أن يحصل يحيى على البكالوريا كان إبراهيم قد قاده إلى دروب الأدب الغربى الفسيحة، وكان الصبى قد تعلم كيف يمسك مجلة مطبوعة بلغة أجنبية.

وفى الثانوى كان تعلقه شديدا باللغة العربية واللغة الانجليزية، وكان التاريخ بالذات دليلا قاده إلى حقيقة وطنه الذى يعيش فيه.. لكنه أبدا لم يفهم- وهو الذى أراد أن يصبح طبيبا- لماذا يحشون رأسه بالطبيعة والكيمياء، علوم كانت تبدو له منفصلة أشد الانفصال عن محيطه الخارجى، عن عالمه الخاص.

وعندما ذهب الى مدرسة الحقوق، كان عليه أن يستكشف أرضا جديدة لم يطرقها من قبل، كانت كل سفراته حتى ذلك الوقت عبر سماوات الأدب والفن والشعر

والخطابة السياسية، لكنه أبدأ لم يطأ قارة القانون، ولم يكن قد عرف عنها شيئا.. وقادته مدرسة الحقوق إلى هذه الدنيا الجديدة، فراح يفصصها على مهل، واذا به يكتشف قارة القانون العبقرية، تلك الرياضة الذهنية التى تقارع الحجة فيها الحجة، والاثبات وعدم الاثبات.. وفى مدرسة الحقوق التقى لأول مرة بالشريعة الإسلامية كعلم..

وانغمس يحيى لأذنيه فى دراسة القانون، وزامل وصادق والتقى بنخبة من عباقرة القانون الذين عرفتهم مصر، وكانت الشلة التى انضم اليها شلة جد، أخذت الدرس أخذ حياة ومنهج، كانُ منهم المرحوم حلمى بهجت بدوى، والأستاذ عبد الحكيم الرفاعى، وسامى مازن.. كانت شلة لا تكف عن المناقشة كلما سنحت لها الفرصة، وفى المدرج التقى الشاب الأخضر العود باساتذة عظام مثل: عبد الحميد أبو هيف، وأذهله ذكاء نجيب الهلالى، وخنت رأسه أستاذية المرحوم أحمد أمين، والشيخ أبو زيد مدرس الشريعة الإسلامية.

فى مدرسة الحقوق لم يتغير الحال أبدا، لم تكن له صلة بالأدب إلا فى البيت: (حياتى الأدبية مصنوعة فى البيت).. فلم تكن شلة الحقوق تناقش وتهتم إلا بالقانون، وكان القانون يشغله، فدخل فيه سباقا رهيبا كان وطيسه يشتد كلما مضت السنوات واقترب موعد التخرج، لكنه فى تلك الأيام المشحونة- ورغم كل شىء- جلس إلى مكتبه وكتب القصة لأول مرة فى حياته!.

لم يجرب قلمه فى عواطفه مثلما فعل الذين كتبوا، بل دخل طريق القصة عارفا بكل خباياه دون خوف أو وجل، لم يتتلمذ على أحد، ولم يرشده أحد، كان قد قرأ طه حسين والمازنى والعقاد، وكان يذهب إلى المحاضرات التى يلقونها فى المحافل والنوادى الأدبية.. وعندما أرسل ذات يوم قصة إلى جريدة السياسة بعنوان: (قهوة ديمترى)، لم يدهش عندما نشرت لكن الفرحة انتابته..شغلته المذاكرة وسباق التفوق المخيف، لكنه نشر فى (الفجر) قصصا عديدة، كان أغربها قصة قطة تملكها امرأة تركية فى الدور الأول من إحدى العمارات وقط تملكه امرأة مصرية تسكن فى الدور الثانى فى نفس العمارة، وكلب تملكه امرأة رومية تسكن فى الدور الثالث، وكان عنوان القصة (فلة، مشمش، لولو)..

استغرقته دراسة القانون فى مدرسة الحقوق، لكنها لم تمتصه أبدا.. فى تلك الأيام لفتت قصة المجنون أنظار المهتمين بالأدب والمشتغلين به، ثمة قلم جديد يحمل فكرا جديدا وبكرا وخصبا يروى حكاية رجل مجنون أراد أن يصلح الكون.

فى مدرسة الحقوق كانت له شلة من القانونيين.

وفى الخارج أصبحت له شلة أخرى، شلة من الأدباء كانت تجتمع فى (قهوة الفن) الشهيرة أمام مسرح رمسيس- الريحانى الآن- وعن طريق إبراهيم حقى التقى بزملاء الشباب الباكر، وعلى قهوة الفن كان أقرب الأصدقاء الى قلبه المهندس محمود طاهر لاشين، والدكتور حسين فوزى.. ولم يقل له أحد فى البيت: على فين ورايح فين وما تتأخرش، أعطوه الحرية فحافظ عليها، ولم يشرب الخمر ولم يدخن الحشيش، وعلى قهوة الفن التقى بأنواع من الفنانين وكتاب القصة، منهم شاب كان اسمه خيرى سعيد، كان طالبا فى كلية الطب ووصل فيها حتى البكالوريوس، لكنه لم يحصل عليه أبدا، ثم التحق بالسلطة العسكرية ضابطا طبيبا.. فجاءت قصصه كلها أولى محاولات أدب المقاومة التى قرأها يحيى حقى بالعربية.. كانت قصص خيرى سعيد تدور داخل معسكرات السلطة، وعذاب المصريين فيها.

ويشتد وطيس السباق كلما اقترب موعد الامتحان، وإذا هو ينكب على القانون يلتهمه التهاما وثمة حلم يراوده طوال السنوات والأشهر والأيام، أن يسافر الى الخارج، أن يحلق فى سماء العالم ويلتقى بعباقرة القانون وعلماء التشريع والفقه.. هناك فى أوربا، حيث الجامعة أسطورة فى البحث.. ويخفق القلب خفقانا لتحقيق هذا الحلم الذى أصبح قريب المنال، ولم يكن ثمة سبيل للسفر إلا أن ينتحر فى المذاكرة. إن شلة الحقوقيين هم الأوائل دائما وهو منهم، سفرهم محتوم والحلم البعيد يوشك أن يتحقق، وكاد الحلم يتحقق بالفعل لولا هامش لم ينتبه إليه فى أحد الكتب، كان الهامش خاصا بالمعاهدة المصرية السودانية لتسليم المجرمين، لم ينتبه يحيى حقى إلى هذا الهامش، فجاء ترتيبه فى الليسانس.. الرابع عشر!

فى لحظة تبدد الحلم..

وسافرت الشلة جميعا فى بعثات إلى الخارج: حلمى بهجت بدوى، طه السيد نصر، عبد الحكيم الرفاعى، وطالب رابع أخذ مكانه اسمه: زهدى.

تبدد الحلم، وأصبح يحيى حقى محاميا، فراح يسعى للالتحاق بالنيابة العمومية.

مرة أخرى.. هل يقوى من كان مثلى على المبارزة؟.. هل أحكى ما حكاه يحيى حقى عن تلك الفترة من العمر التى تعرف فيها بالشعب المصرى، عندما عمل كمحام فى الأسكندرية، ثم عندما التحق بالنيابة العمومية ليقذف به القدر الى بطن مصر، فإذا به فى قلب الصعيد، وإذا صورة الصليبية والسيدة زينب والأزهر وحوارى القاهرة تمتزج امتزاجا شديدا، ثم تفترق افتراقا شديدا عن تلك الصورة الجديدة، الرهيبة، الحية، المذهلة، التى استقبلته فى الصعيد؟

آه يا أحلى أيام العمر وأكثرها خصوبة!

(السنتين اللى قعدتهم فى منفلوط هم أهم أحداث حياتى على الإطلاق...).

هل تعرفون لماذا يفضل يحيى حقى كتابة القصة القصيرة بالذات؟.. هل تعرفون لماذا كان هذا القالب هو أفضل القوالب عنده وأقربها الى طبعه؟

« لأن الحدث فيها عندى يقوم على تجارب ذاتية، أو مشاهد مباشرة، إن عنصر الخيال فيها ضئيل جدا، وهو يأتى لربط الأحداث فقط، لكنه لايتسرب إلى اللب أبدا».

وعندما فتح عينيه على الدنيا وجد أن قمة التعبير والبراعة هى فى اختيار اللفظ المناسب فى المكان المناسب. ومنذ أمسك بالقلم فى تلك الأيام البعيدة، وهو فى العشرين من عمره، وهو ينادى بضرورة وجود أسلوب علمى فى الأدب: (أنا على استعداد للتنازل عن جميع قصصى وأعمالى الأدبية، فى سبيل المساهمة فى هذه الدعوة).

منفلوط وشهود منفلوط وليل منفلوط وناس منفلوط وطباع أهلها وعاداتهم وتقاليدهم وزرعهم وخفرهم وعمدهم موظفوهم ودنياهم.. هذه هى مصر الحقيقية.

كانت سياحته فى مصر عنيفة، قادته عبر الحقول والمساقى والنجوع والثأر، فإذا هذا عالم جد غريب راح يمتصه على مهل امتصاص العطشان.. هذا هو وطنه إذن، هذه هى مصره التى ولد فيها وعاش وتعلم.. فى عام ١٩٢٥ تخرج فى مدرسة الحقوق، وفى عام

۱۹۲۹ كان يقلب صفحات جريدة فى ليل الصعيد الصامت، عندما وقعت عيناه على إعلان.

مصادفة كانت، مجرد مصادفة، ولقد كان حافظ عفيفى وقتها وزيرا للخارجية، وقررت الوزارة عقد مسابقة للالتحاق بوظائفها، وقدم يحيى فى المسابقة، ونجح، وانتقل من منفلوط إلى الخارج.. من سلك الشعب إلى السلك الدبلوماسى..قفز من طبقة الغلابة لينتمى إلى: (طبقة الخارجية وأولاد الأعيان).

وكما اهتزت نفسه بعنف عندما سافر الى الصعيد لأول مرة، وكما شعر بعد هذه الهزة وكأنه انتقل من عالم إلى عالم آخر، ومن دنيا إلى دنيا شديدة الاختلاف.. اهتزت نفسه بعنف أشد وهو ينتقل من الصعيد إلى (جدة).

فى أسابيع قليلة، وجد نفسه أمينا للمحفوظات فى قنصليتنا بجدة.

فى أسابيع قليلة، انتقل من التحقيق وحكايات السرقة والقتل والغرام المحرم وليل الصعيد الساكن وقصص الدماء والطين، إلى حيث كان عليه أن يتعلم البروتوكول.. إلى حيث كان عليه أن يتعلم كيف يأكل وكيف يشرب وكيف يلبس وكيف يمشى وكيف يتمنى وكيف يتصرف.

فى جدة، حدثت فى حياته ثلاثة أشياء هامة:

التقى بالجبرتى فى مكتبة القنصلية.. فذهل.

والتقى بالعقلية الغربية المنظمة.. فاحترمها.

والتقى بالمسلمين من جميع أنحاء الدنيا، يأتون للحج فيكونون أمام عينه الثاقبة لوحة كان لها أبلغ الأثر فى نفسه.

***

فى جدة، كان النشاط الدبلوماسى قليلا، وكان أمامه وقت فراغ راح يقضيه فى المكتبة.. وعندما التقى بعبد الرحمن الجبرتى، وتعرف عليه، فتن به أشد الافتتان.. ورأى فيه شعبه الذى أضنى نفسه فى البحث عنه فى الحلمية والصليبة والقلعة ومنفلوط، رآه رأى العين ولم يقرأه.. وكان هذا هو أول كتاب يهزه حقا من الأعماق ويؤثر فيه تأثيرا مباشرا..

فكتب ست مقالات تبحث فى الفكاهة عند الشعب المصرى، استند فيها إلى الجبرتى، ووقعها باسم عبد الرحمن بن حسن.. وهذا هو اسم الجبرتى!

فى جدة، رأى المسلمين من كل أنحاء الدنيا، رآهم من الهند والصين ومن جاوة واندونيسيا ومن تركستان وأفريقيا، فامتشق القلم وراح يكتب ويرسل مقالاته إلى القاهرة.. «حلمى أن يتحقق حلم الإسلام»..

... وفى جدة، التقى بالمستر (سان جون فيلبى)، المستشرق البريطانى الذى لعب دورا شهيرا فى الشرق لحساب مخابرات بلاده، والذى اجتاز الربع الخالى ووضع عنه كتابا، والذى كان يحيى حقى يمر عليه بعد انتصاف الليل ليجده ساهرا يقرأ أو يكتب.. ولقد أضناه وعذبه أشد العذاب أن يفعل الغربيون هذا ولا يفعله العرب. إن مستر (فان در مولن) قنصل هولندا فى جدة، كان هو الآخر مستشرفا تخصص فى وضع خرائط الجزيرة العربية.. لقد تنبه الغرب الى مالم ننتبه نحن اليه، وساندت مخابرات الغرب ودور النشر رجال الفكر وساعدتهم واستفادت منهم.. غير أن تجربته فى جدة لم تدم لأكثر من عام واحد، ففى عام ١٩٣٠، انتقل إلى تركيا، الى حيث مسقط رأس جده إبراهيم حقى، الى حيث جذور عائلته وتربتها الأولى، وعاش هناك تجربة من أعمق تجارب حياته، ورأى بعينى رأسه المرحلة الثالثة لكمال أتاتورك، وهى المرحلة التى أراد فيها أتاتورك أن يحول تركيا الى دولة علمانية لا دينية.

***

الآن.. يختلط كل شىء بكل شىء..

الآن هو شاب مصرى من أصل تركى يمثل مصر فى تركيا.

الآن هو قارىء ناضج نهم الى المعرفة.. الآن هو مسلم فى دولة تتحول بعيدا عن الدين، وتحارب تقاليد الدين، وحروف لغة الإسلام.. الآن هو باحث مطلق وراء الحقيقة.. الآن تنضج نار القلق والشوق والبحث شخصه.. الآن هو يقفز من دولة تحيا فى أقصى السلفية، إلى دولة تسعى إلى أقصى العلمانية.. ومذ عام ١٩٣٠ إلى عام ١٩٣٤، عاش الشاب سنواته أمينا لمحفوظات قنصلية استانبول، وكانت العاصمة قد انتقلت إلى أنقرة.

كم أضناه البحث وهو فى جدة، عندما تلقت القنصيلة خطابا من وزارة الخارجية فى مصر، تطلب فيه البحث عن عالم من علماء الإسلام اسمه(موسى جاد الله) .. وإذا به يدوخ الدوخات السبع حتى يعثر على (موسى جاد الله)، مجرد تاجر مانيفاتوره لا علاقة له بالعلم أو العالمية.. وكم هزته الفرحة والسعادة وهو فى استانبول، عندما عثر على (موسى جاد الله) الحقيقى، فالتقى به على شوق، وبسعادة.

وفى تركيا، ارتدى القبعة لأول مرة فى حياته.. وتعلم أن للقبعات علما وأصولا.. هناك الكاسكيت التى لا يرتديها إلا العمال، أما أولاد الذوات فيضعونها على رءوسهم فى الرحلات البحرية فقط، وهناك القبعة القش التى يرتديها أبناء حوض البحر الأبيض المتوسط، ثم القبعة العادية المصنوعة من الجوخ، ثم الشامة- هذا اسمها- التى توضع على الرأس مع الأسموكنج ثم (الهاى هات) التى تستعمل مع الفراك فى الحفلات الرسمية، ثم قبعة الأوبرا...و... ولقد اضطر أن يشترى كل هذه الأصناف من القبعات، علاوة على الطربوش.

كل شىء يختلط بكل شىء.

فى تركيا عاد إلى الأرض التى هاجر منها جده، وتعلم اللغة التركية على كبر وأتقنها، بل عثر على أقارب له في أستانبول سكن عندهم.. غير أن أكثر ما كان يحز فى نفسه، هو العائلة المالكة المصرية، التى كانت قد تعودت قضاء الصيف فى أستانبول، والتى تعود أفرادها أن يقولوا فى تركيا إنهم مصريون، وتعودوا أن يقولوا فى مصر إنهم أتراك..

فى تركيا إنغمس أكثر فى الدبلوماسية.

وفى تركيا شاهد كمال اتاتورك عن قرب، وسمعه وهو يخطب، وعاصر تحويل الحروف التركية من العربية إلى اللاتينية وضاق بالعداء الشديد للإسلام، وحاول الاتصال بأدباء الترك، وكان سعيد الحظ لأنه التقى بالشاعر عبد الحق حامد- شكسبير تركيا- فى أخريات أيامه والشاعر يحيى كمال.. لكنه لم يقابل الشاعر الإسلامى محمد عاكف الذى فر من تركيا بعد الحركة الكمالية، رغم أنه واضع النشيد الجمهورى التركى.

أربع سنوات قضاها فى تركيا، أربع سنوات عجيبة غريبة، مارس فيها الدبلوماسية

والأدب والسياسة والدين والعلم، ارتد فيها إلى أعمق جذوره، وتطلع عبر البسفور إلى أعلى ورقة فى شجرة الحضارة.. أربع سنوات سلقته وعذبته وأعدته لكى يستقبل أوربا، فبعد السنوات الأربع نقل إلى روما.

***

ها هو أخيرا يحقق الحلم ويناطح الثقافة الغربية رأسا برأس، ويعاصر تحولات رهيبة فى حياة الشعب الايطالى، ها هو يعرف لأول مرة ما هى الموسيقى وما هو الباليه وما هى الأوبرا.

فى روما غرق لأذنيه فى الموسيقى- الهامش الذى نسيه فى كتاب ثقافته- وراح ينهل منها دون شبع أو ارتواء، وفى روما راح يتتبع شجرة النسب للحضارة الأوروبية المتصلة باللاتينية وحضارة الاغريق.

انتقل من دكتاتورية أتاتورك، إلى فاشستية موسولينى.

الفاشستية تجتاح العالم، وحكم الفرد الواحد يغزو الدول، والجماهير تزأر فى وحشية، وموسولينى يهدر كأعظم الخطباء.

موسولينى.. هذا الداهية ذو التأثير الرهيب على الناس إذا ما خطب، هذا الخطيب المسرحى العظيم، والكاتب والأديب الكبير.

وكما تعلم التركية فى تركيا، تعلم الإيطالية فى روما، وراح يغترف من الأدب الإيطالى بنهم كان يشتد، استطاع أن يقرأ الجريدة والمجلة وبعض الكتب، لكنه لم يستطع التوغل فى الكلاسيكيات والشعر..ثم التقى بموسولينى الكاتب المسرحى الفنان، قرأ له مسرحية بعنوان (مائة يوم)، وكتابا آخر بعنوان: أخى أرنالدو، وعرف أن موسولينى كان يكتب صيغة البيانات الرسمية بنفسه، وكانت هذه البيانات بالذات قطعا من الأدب الملتهب..

فى روما تعلم أصول الحديث فى الصالونات، وعندما حاول أن يتعلم الرقص فشل، كما فشل فى تعلم لعب الورق، وكانت هذه منه خيانة دبلوماسية شديدة، وطالما عابوها عليه.

وفى روما امتلأ قلبه بالرعب على مصر.

كان يرقب التوسع الإيطالى فى شمال إفريقيا بفزع شديد، وكان يرى شره الإيطاليين ونهمهم ورغبتهم فى التهام مصر.. وإذا كان حديث الصالونات له أصول وآداب، تتميز أول ما تتميز ببساطة الكلمات ورقتها، فإن هذا لم يمنع إحدى السيدات من أن تقول له يوما : (ياللا طلعوا الإنجليز من بلدكم علشان نيجى احنا!!).

وامتلأ قلبه بالفزع وهو يرى الشوارع وقد غطيت جدرانها بالخرائط التى تبين اتصال ليبيا بالحبشة عن طريق السودان فى كماشة رهيبة.. وامتلأ قلبه بالرهبة عندما زار هتلر روما، وشاهد هتلر وهو يمشى فى صلف وكبرياء. ثم زار ألمانيا وهو لايعرف كلمة واحدة من اللغة الألمانية، لكنه وقف مبهورا وسط ألوف الناس، عشرات الألوف، يستمع إلى هتلر وهو يخطب فى برلين، وبلغ به الانفعال مع كلمات الرجل التى لم يكن يفقه منها كلمة، إلى حد أن دموعه راحت تنهمر.

ماذا كنت تفعل لو أنك كنت مكانه؟..

ماذا كنت تفعل وأنت واقف فى وسط مائة ألف إنسان، كلهم منتصبو القامة كالرماح، أيديهم ممتدة إلى الأمام فى تحية صلبة، عيونهم معلقة بشخصية رجل واحد يشدهم إليه بسحر غامض ورهيب، صوتهم واحد، واحد، واحد.. يزأر فى أغنية واحدة، تتردد كلماتها ولحنها فى هدير كموج محيط يكتسح العالم.

فى روما اشتد عوده، وأصبح رجلا بعد أن دخل باب الدنيا والمعرفة..

لكنه عندما عاد إلى مصر، وكان ذلك فى عام ١٩٣٩، وعندما وضع قدمه فوق أرضها، اندب فى قلبه إحساس غريب، كان وكأنه يراها لأول مرة.. فكتب: قنديل أم هاشم!

إن كل ما جاء على لسان إسماعيل بطل قنديل أم هاشم، هو كل ما دار فى وجدان يحيى حقى.

***

عاد من أوربا حيث كان الاستعمار فى أزهى عصوره، حيث الشوارع الفسيحة

النظيفة، حيث الغنى والمال والفن.. عاد من أوربا إلى مصر، إلى الجوع والفقر والقذارة ومنظر المحطات وهلاهيل الناس.. عاد إلى مصر فى عام ١٩٣٩، وبقى فيها طوال عشر سنوات، وجد نفسه أثناءها مديرا لمكتب وزير الخارجية فى يده الشفرة، وكل الأسرار.

أى تمزق جديد يعيشه الفنان بين واقعين شديدى الاختلاف، شعب فقير بعيد كل البعد عما يدور فوق رأسه من الأعيب، فى سراديب الدبلوماسية وأوكار السياسة. عاش واتصل عن قرب بالنحاس والنقراشى وإبراهيم دسوقى أباظة وإبراهيم عبد الهادى وأحمد محمد خشبة.

فى تلك الأيام، عاش فتانا مأساة العمر كله.

ألا يستحق الأمر هنا وقفة نلتقط فيها الأنفاس؟

كان الفتى قد بلغ السابعة والثلاثين من عمره، لكنه كان لايزال أعزب وحيدا.

كان مديرا لمكتب وزير الخارجية، وفنانا يكتب القصة، ومثقفا نهما، لكنه كان قد بدأ يحن إلى البيت والزوجة والأولاد.. حتى رآها ذات يوم.

كانت تسير مع شقيقتها ففتن بها، وسأل أحد أصدقائه عنها، وعرف من الصديق أنهما شقيقتان، وأنهما تسكنان فى المعادى، وأن أباهما هو عبد اللطيف سعودى المحامى وعضو البرلمان، وأن سالبة لبه اسمها نبيلة.

وتقدم يحيى حقى إلى الأب يطلب يد نبيلة.

ووافق الأب.. وعندما ذهب يحيى إلى بيت معشوقته لأول مرة كاد يقع مغشيا عليه، كانت نبيلة التى خطبها هى الشقيقة وليست الحبيبة، فلم يستطع التراجع.

الحياة تنسج القصة مع كاتب القصة، وإذا كان الكاتب أستاذا فالحياة فوق الأستاذية، وإذا هو يكتشف فى نفسه ميلا شديدا تحول إلى حب عارم لهذه التى قدر لها أن تصبح زوجته، ذلك الطيف البشرى الرقيق الذى مر فى حياته كسحابة صيف لم تظلله طويلا.. ما أن تزوجها حتى حملت منه فى قرة العين.. فى (نهى) التى أصبحت اليوم زوجة.. ثلاثة أشهر فقط عاشتها نبيلة سعودى معه.. ثلاثة أشهر فقط وإذا المرض يدهمها على غير انتظار، مرض غريب متوحش مؤلم راح يسحب النور من عينها اليسرى يوما بعد يوم.

كانت قبل أن تمرض ترى النملة على بعد عشرة أمتار، وإذا بالبصر ينسحب ليحل محله الظلام، وإذا الطيف يبكى ألما وتطلب منه أن يميتها، أن يقتلها، أن يريحها من عذاب ضياع البصر كله، فلقد كان الظلام يزحف إلى العين اليمنى بعد أن قضى على اليسرى تماما.. وكانت (نهى) تكبر فى الرحم حتى إذا جاءت إلى الدنيا بعد تسعة أشهر من الزواج، لم تمكث الأم سوى شهر واحد.. ودعت بعده الدنيا، وتركته وحيدا من جديد!!

وكانت الصدمة عنيفة قاسية.. لكنه احتمل، وظل وفيا لذكرى حبه الأول، لعشر سنوات كاملة.

***

عندما التقى الشاب بروما، كان لقاؤه بها رفيقا، وأخذته المدينة العريقة مأخذا لينا، فالتقى فيها بالحضارة فى غير اتقاد أو توهج.. كانت روما بالنسبة إليه، مثل مسرح صغير.. لكنه عندما هبط إلى باريس فى عام ١٩٤٩، وجد نفسه تائها فى محيط بلا قرار.

فى عام ١٩٤٩ انتقل يحيى حقى من مكتب وزير الخارجية إلى سفارتنا فى باريس، سكرتيرا أول بها.. وكان وحيدا ترك وحيدته خلفه فى القاهرة، كان حزينا يملك ذلك الأسى المتقد رغبة فى المعرفة، دهمته أمواج باريس فكاد يغرق: «واللى مش عارف هو عاوز إيه، مش حايلاقى قدامه غير الشوارع والقهاوى والبنوك والمطاعم»(!).. وحاول أن يمسك بمدينة النور فكادت تفلت منه، غير أن أهم ماشعر به، وأعظم ما عاشه هو هذا الإحساس الغامر بطعم الحرية.

الحرية ليست كلمة لكنها معنى عظيم ينفذ إلى نخاع النفس.

لم يكن قد ذاقها من قبل، لا فى القاهرة ولا فى جدة ولا فى تركيا ولا فى روما.. لكنه فى باريس التقى بها وجها لوجه، وعرف معناها: «فى باريس كل واحد حر، الحكومة هناك هى عسكرى المرور وبس!!».

غير أنه كان يعرف ما الذى يريده من مدينة النور، فراح يسعى اليها على حذر، وطرق باب الفن فالتقى برفيقة العمر فى مرسم.. اسمها: مدموازيل جان ميرى جيهو.. فنانة تلتقى بفنان، تماثيلها ولوحاتها تلوى عنقه كلمة بعد كلمة، وإذا حديث الفن يمتصهما،

وإذا ابنة مقاطعة بريتانيا الفرنسية تقوده إلى الوسط الفنى، وإلى الحب.. قصتها هادئة راحت تنمو على مهل، وراح- فى باريس- يزاول هوايته القديمة، وها هو يعيش حيث أعظم خطباء العصر؛ ديكلو سكرتير الحزب الشيوعى الفرنسى وقتها، ودلادييه، ورينو، وجول موك اليهودى، وماير.. غير أن جلسته فى لوج الدبلوماسيين بالجمعية الوطنية، مهما بلغ استمتاعه بها، وبأساليب الخطابة التى كان يتذوقها فيها، لم تكن تمنع الألم الدفين لمنظر الأعضاء الجزائريين فى هذه الجمعية حيث كانوا كما مهملا، إذا وقف أحدهم ليخطب، تشاغل عنه أعضاء الجمعية بالحديث أو قراءة الجرائد.

هؤلاء كانوا خونة الثورة الجزائرية.

فى باريس، لم يبق سوى عامين، نقل بعدهما إلى أنقرة، وكان يحمل فى قلبه حبا لم تخب ناره أبدا.

***

ها هو يعود إلى تركيا من جديد، ها هو يعود إليها وقد انحسرت غلواء الموجة الكمالية بوضوح، ها هو يعود إليها أرمل وأبا ورجلا يحب، ها هو يعود إليها رجلا ناضجا، مستشارا للسفارة وليس أمينا للمحفوظات، أديبا مخضرما مارس الكتابة وعبر وتفنن فى وضع الكلمة المناسبة فى المكان المناسب.. وفى أنقرة بقى عامين آخرين، شبت أثناءهما ثورة ١٩٥٢ فى مصر.. وبعد قيامها بعامين، قفز إلى قمة السلك الدبلوماسى، حيث عين وزيرا مفوضا فى ليبيا.. وكان ذلك فى عام ١٩٥٤..

***

فى ليبيا عاش عاما عصيبا، كانت هذه هى المرة الأولى فى حياته التى يتولى فيها رئاسة بعثة دبلوماسية.. كانت مصر فى ذلك الوقت تقف من الأحلاف موقفا اهتزت له كل معايير الدبلوماسية المصرية التقليدية، وكانت ليبيا مقدمة على توقيع معاهدات مع أمريكا وانجلترا وفرنسا، وكان الصراع عنيفا وقاسيا وثقيلا.. وفى قلبه يكمن حبه الملتهب، ولم يكن يستطيع الزواج من حبيبته إلا إذا ترك السلك السياسى، ولم تكن وزارة الخارجية هى مآله، فلقد كان يعرف أن الفن هو طريقه، وكان قد بلغ التاسعة والأربعين من عمره، فمتى تدفىء بيته أنفاس الحب.. متى؟!

تقدم إلى الوزارة طالبا الأنتقال إلى وزارة أخرى، ونقل من وزارة الخارجية إلى وزارة التجارة، وتزوج حبيبته، بعد أن عاد إلى القاهرة مرة أخرى..

***

فى عام ١٩٥٥ أنشئت مصلحة الفنون، فكان هو أول وآخر مدير لها، لأنها ألغيت بعد أن تركها، وبعد أن أصبحت هناك وزارة للثقافة، وكان آخر مناصبه هو رئيس تحرير مجلة المجلة.

إيه يا رحلة العمر الشاق المتنوع الجوانب، ولابد أن زهير بن أبى سلمى، هذا الشاعر العربى الذى كان يكتب القصيدة الواحدة فى عام كامل، كان أحد أجداده، ولو بالروح.

.. وظل يحيى حقى حتى مرضه الأخير يقبع خلف مكتبه المكدس بالكتب، فى غرفته المبطنة أرضها وجدرانها بالكتب، يكتب الجملة الواحدة ما يقرب من أربعين مرة، يبحث فى شوق عن اللفظ المناسب فى المكان المناسب، يتلو جمله التى يكتبها على نفسه وهو يسير وهو يأكل وهو يشرب وهو نائم.. يعذبه أشد ما يعذبه حاجتنا الملحة إلى أسلوب جديد فى الكتابة، هو يرفض الاحتراف فى عناد، كما يرفض الكلام الزائد والبلاغة اللفظية.. أقرب قصصه إلى نفسه هى: (صح النوم) .. وعليك إذا عزفت على العود ألا تسمع الناس خبطة الريشة، وعليك إذا كتبت ألا تسمع القارىء صرير القلم.. إن أعظم ما قيل له كان من فتاة فى العشرين من عمرها، لا يعرف اسمها.

قالت له: « عندما أقرأ لك، أشعر و كأنى لا أقرأ» !.

يحيى حقى يعترف:

بسبب حبى للشعر اخترت القصة القصيرة

«هذا الطريق الذى سلكه محمود طاهر لاشين يسير فيه أيضاً يحيى حقى»

كانت تلك هى المرة الأولى التى يتردد فيها اسم يحيى حقى فى الحياة الأدبية المصرية، وكانت المناسبة مقدمة كتبها أحمد زكى أبو شادى لمجموعة قصصية جديدة لمحمود طاهر لاشين بعنوان « يحكى أن» عام ١٩٢٩.

منذ ذلك التاريخ ودوائر الاهتمام بيحيى حقى تتسع وتتزايد عبر رحلة طولها اكثر من سبعين عاماً خاض خلالها يحيى حقى بحاراً عديدة وواجه تيارات مختلفة فى الأدب والفكر والترجمة، هى فى النهاية انعكاسات لتجربة ذاتية ممضة للذهن والروح والأعصاب والبدن.

مشوار طويل عمل خلاله يحيى حقى فى وظائف المحاماة والنيابة والإدارة ودار الكتب والخارجية ووزارة التجارة ومصلحة الفنون ووزارة الثقافة، وأثرى فيها المكتبة العربية بمؤلفاته ومترجماته وقصصه القصيرة والطويلة ولوحاته القصصية ومقالاته النقدية والفنية..

تجربة كبيرة وثرية يضمنها الأديب الكبير ويلخصها فى كتابه القيم «جهادى فى الفن»، الذى يحكى فيه رؤيته الشخصية وتجربته الذاتية عبر هذا المشوار الذى يمتد فوق سبعين عاماً من العمل بلا انقطاع أو توقف فى خدمة الأدب والفن والثقافة.. يحكى فيه مثلا عن اتجاهه للقصة القصيرة وليس غيرها.. فيقول من قلبه المفتوح بالصدق:

« أنا لم أكتب الشعر قط.. ولا الزجل، وإنما اتجهت فوراً إلى القصة القصيرة لأنها أقرب قوالب الأدب إلى الشعر، وأنا لى نزعة شديدة لحب الشعر وأشترط أن تكون القصة القصيرة فيها نغمة شعرية نحس بها إحساساً خفيفاً دون أن تكون طاغية على القصة.. وسر عبقرية اللغة هو الشعر.. وإذن يجتمع هذان السببان فى أنى فضلت القصة»..

وعن علاقات الحب والعمل التى جمعته ببعض كبار الكتاب الذين زاملوه فى بعض مراحل حياته مثل نجيب محفوظ وعلى أحمد باكثير يقول:

« كنت سعيد الحظ جداً أننى زاملت الأستاذ نجيب محفوظ عندما كنت مديراً لمصلحة الفنون وعملنا معاً ثلاث سنوات فى الخمسينيات، لأننى وجدت أن من يتولى إدارة عمل كمصلحة الفنون سيأكله تتابع الحوادث مع أنه محتاج إلى رأى يصدر عنه أو فلسفة يسير عليها، فأردت أن أشرك نجيب محفوظ فى مسئولية هذا العمل وأقول له: تعال أنت وعلى أحمد باكثير وسأسمى مكتبكما «المكتب الفنى» ولا أعرض عليكما أى ملف أبداً ولن أشغلكما بأى عمل روتينى.. وكل ما أريده فقط هو أن توجهانى من الوجهة الفلسفية: كيف يمكن أن أسير فى مصلحة الفنون؟ ماهى الجهات التى يجب أن أوجه لها الأهتمام الأول؟ وما هى الصعاب التى تواجهنى؟ وكيف يمكن أن نتغلب عليها؟.. ولكننى كنت أحلم أن يبدى لى نجيب محفوظ رأيه.. إذ يبدو أن إبداء الرأى يتبعه مسئولية.. ونجيب محفوظ لم يشأ أن يتحمل أى مسئولية!!

.. ولكننى كنت سعيداً لأننى كنت أزامل نجيب محفوظ وشهدت مولد « اللص والكلاب» فى مصلحة الفنون، فكنت أدخل عليه فى مكتبه فإذا به يسير فى الحجرة ذهابا وايابا واضعا يديه خلف ظهره ورأسه مرفوعة إلى السماء كأنه يستنزل الوحى والالهام.. ثم اذا به يخرج لنا « اللص والكلاب»(*).

(*) حكى الأديب الكبير يحيى حقى لى أنه صرح لأديبنا العالمى نجيب محفوظ بأنه يعفيه من قيود الروتين الحكومى فى مواعيد الحضور والانصراف حتى يتفرغ لإبداعه وفنه، لكنه كان يفاجأ بساعى مكتبه يخبره أن الأستاذ نجيب محفوظ فى مكتبه منذ الثامنة صباحا وأنه لاينصرف قبل الثانية والنصف بحسب نظام الحكومة، ويضيف يحيى حقى قائلا إن نجيب محفوظ كان صورة تقليدية لموظف الحكومة، فكان إذا استدعاه لأى حوار خاص بالعمل لايدخل عليه قبل أن يدق باب المكتب مستأذنا ولايجلس إلا إذا أذن له بذلك، مراعيا فى كل الحالات مظهره وضم أزرار الجاكيت عند كل لقاء، وأن ذلك السلوك من جانب نجيب محفوظ كان من أشد ما يتعب يحيى حقى، الذى كان يريده فنانا منطلقا فى عمله وحياته، تماما كما هو فى إبداعه وكتاباته!!

«أما على أحمد باكثير - يقول يحيى حقى - فقد تولى الإشراف على المسرح الشعبى. وفى أثناء العدوان الثلاثى وضع لنا نصاً اسمه « البيرق النبوى» قام بتلحينه أحمد صدقى، وعرض فى ذلك الوقت فكان له فضل تحريك هذا المسرح الشعبى وفى تقديم عمل رائع يناسب اللحظة، وهو ضرورة الالتفاف لمواجهة العدوان».

أما عن علاقته بتوفيق الحكيم فيقول:

«كان توفيق الحكيم زميلا لى فى كلية الحقوق أو مدرسة الحقوق كما كانت تسمى فى ذلك الوقت، وكان لايبعد عنى اكثر من نصف متر.. وقد وصفته فى مقال لى بعنوان «توفيق الكيم بين الخشية والرجاء».. وكان يبدو لى أنه رجل تائه فى الأحلام أو أنه من طبقة لايمكن أن ينتظر منها أن تحس بأوجاع الشعب. وهو لم يكن يبدى رغبة فى التقرب منى ، وأنا لم أحس بالرغبة فى اقتحام عالمه ولكننى عبرت عن تقديرى لتوفيق الحكيم فى مقال عنه. وقد قابلته مراراً فإذا به لايذكر قط لى أنه قرأ هذا المقال. وكنت فى شبابى أعرف أن له محاولات فى المسرح وكانت أعماله تقدم من خلال فرقة أولاد عكاشة، لكننا لم نتحاور ولم نتكلم فى الأعمال الأدبية أبداً ولا على مدى الأيام حتى الآن، ولو التقينا أجلس أنا جلسة المستمع.. وفى جلسات توفيق الحكيم يكون هو الذى يتكلم فقط ليروى لنا تجاربه» (*).

وفى حديثه عن لحظة الإبداع الأدبى لايفوت يحيى حقى أن يتكلم عن اللغة وجهاد الكاتب معها.. وهو جهاد من صميم عمله.. فوظيفة الكاتب هنا أن يجرَّ اللغة من الماضى الى الحاضر جراً ليجعلها قادرة على التعبير عن متطلبات العصر الحديث الذى يعيش فيه.. فهو خادمها وهى سيدته التى يجب أن يخدمها.. أما وظيفة اللغة فهى أن تفتح له أبواب التعبير.. فاللغة لها عبقرية التعبير ولها قوانينها الذاتية ولها منطقها الخاص.. ولو أخلص لها الأديب لأخلصت له ولأفضت إليه بمكنونها..

(*) ألمح يحيى حقى فى أكثر من مناسبة إلى أنه لايستحسن اهتمام توفيق الحكيم بالدعاية والنشر وقبوله نشر موضوعات عنه مع بعض لاعبى الكرة ونشر صوره معهم، وترويجه لفكرة بخله أو وصف نفسه بأنه عدو المرأة فى وقت كان فيه رب أسرة وزوجاً وأبا له أبناء!! وأنه يرى أن أديبا كبيراً فى حجم توفيق الحكيم أكبر من أى دعاية أو أعلان .

أما لحظة الإبداع الأدبى فهى لقاء فى منتصف الطريق.. على حد قول يحيى حقى.. فالإلهام أو الوحى لايهبط على إنسان فقير فى الاحساس.. فقير فى محصوله الثقافى أو عواطفه أو فى قواه الروحية والعقلية.. أو فى مقدرته على الاستبطان.. لأن الفنان ينبغى أن يكون إنساناً فاحش الثراء فى إحساسه وثقافته وقدراته الذهنية والروحية.. لذلك لايهبط الوحى إلا على انسان مشرئب إليه.. فهو إذن لقاء فى منتصف الطريق بين الإلهام وبين المتطلع إليه..

والأديب عند يحيى حقى فنان هامس لايجنح إلى الصوت المرتفع فيما يقول ويكتب.. وهو مذهب التزم به أيضاً الدكتور محمد مندور عندما نادى بالشعر المهموس وعند وصفه لكل أشعار الدكتورة ملك عبد العزيز فى كتاباته النقدية لدواوينها الشعرية.

الكاتب إذن يجب أن يكون هامساً حتى يستطيع أن ينفذ إلى نفس قارئه..

وهو- الكاتب الفنان- فوق كل النظريات الأدبية، وكل كاتب غير مقيد بما يقوله الناقد، لأن الخضوع للنظريات الأدبية والنقدية يزلزل الكاتب الذى يجب فقط أن يراعى متطلبات العمل الأدبى الذى هو بصدده وأن يؤديها.

صحيح أنه يجب أن يكون على علم بالنظريات الأدبية والنقدية التى تدور حوله، لكن بشرط ألا يتقيد بها، لأن المدرسة الحقيقية التى يجب أن يتعلم فيها الفنان هى تجربته الذاتية من خلال معايشته الواقع من حوله.. ثم من قراءاته لكبار الكتاب عبر الأزمنة والعصور المختلفة.

حـــوار بـــلا
شـــطـــئـــان !

حوار بلا شطئان!

كان حوارنا – حوار التلميذ والأستاذ– يدور حول قضايا الأدب.. عن الأدباء الشبان تكلمنا.. عن المجلات الثقافية ومذاهب النقد والإبداع الفنى.. عن تجربته الإبداعية ورؤيته للمستقبل.

جهاز التسجيل بيننا يرصد كل لحظة في اللقاء.. والوقت من حولنا يقفز من دقيقة إلى دقيقة متسارعاً لايريد أن يتوقف.

صوته الهادىء ينساب مفعماً بحرارة الصدق..

كانت بداية حوارنا عن حال المجلات الثقافية وتجربته معها.. قال:

المجلات الثقافية كما نعلم جميعاً هى الروافد الرئيسية والهامة لأى حركة أدبية فى أى بلد لقدرتها:

أولا: على المتابعة الزمنية.

وثانياً: لإتاحتها الفرصة لكثير من الكتاب للظهور.

وثالثاً: للتنوع.

ورابعاً: لرخص ثمنها وسهولة تداولها..

واختفاء المجلات الثقافية فى أى بلد هو نوع من الدلالة على الشلل الذى يصيب الحركة الأدبية والثقافية.

والحل؟

يقول: نحن نعيش فى عصر النقابات.. وأعتقد أن دور هذه النقابات يتجاوز الدفاع عن حقوقها النقابية.. فيجب أن تعنى أيضا بالناحية الأدبيه والروحية والمعنوية لأعضائها وليس فقط البحث فى توفير الرعاية الإجتماعية لهم أو العلاج والمعاش..

وسأضرب لك مثلا بمجلة كانت تصدرها نقابة المهندسين وكان رئيسها المهندس سيد كريم وكنت أنا من قرائها ومن أشد الشغوفين بها.

ويستطرد في حماس: يجب إذن أن يخرجوا عن حدود المشاكل المهنية وأن يتصلوا بالقارىء العام أيضا، لأننا يجب أن نخفف العبء عن كاهل وزارة الثقافة ولا ننتظر منها أن تفعل كل شيء لأنها لن تستطيع.

ثم يرفع إصبعه محذراً: لكن مثل هذه المجلات تقع في خطرين كبيرين.. فهي أولا تقوم على الاشتراكات الجبرية.. وكل مجلة تلزم الأعضاء بالاشتراك فيها جبراً يكون مصيرها سلة المهملات.

الشرط الأول إذن أن تكون حرة تجاريا

أما المسألة الثانية فهي التوزيع والاشتراكات.. ونحن في هذا السبيل نجيد الإنتاج ولانجيد التوزيع، وأمامك تجربتنا في المجلات الثقافية وكنت أنت أحد شهودها.

أما عن التمويل ـ يضيف يحيى حقي ـ فهذه النقابات غنية.. لكن يجب أن تضع في حساباتها مخاطبة القارىء العام، لأنه مثلا من غير المعقول أن يكون لمصر هذا الرصيد الهائل من الآثار الفرعونية والقبطية والإسلامية ولاتوجد بها مجلة واحدة تعنى بتقديمه للقارىء وتعريفه به!

نقابة المعلمين مثلا مطالبة بإصدار مجلة عن التربية

والجمعية التاريخية لماذا لاتصدر مجلة تعنى بدراسة التاريخ.

وكذلك الجمعية الجغرافية.

أما المهن الفنية كالسينما والمسرح، فالمنطق هنا يقول إن مثل هذه النقابات يجب أن تقوم بدورها أيضاً لاصدار مجلات تعبر عن الحركة الفنية، لكن يخشى هنا أن تكون هذه المجلات ستاراً لاخفاء أخطاء أو لتبرير تصرفات فيختفي فيها النقد الحر، ولهذا فصعب الآن الموازنة بين فوائد أو مضار إصدار مجلات فنية عن مثل هذه النقابات..

هنا يجب أيضا أن ننبه إلى أن البنوك الكبرى في الخارج لها نشاط ثقافي.. منه مثلا إقامة المعارض الفنية.

لماذا لايدخل البنك الأهلى أو غيره من البنوك الكبرى فى عملية المقتنيات الفنية لتنشيط الحركة الثقافية من جهة.. ومن جهة أخرى فهى عملية استثمار بالدرجة الأولى ويجب أن يكون لها خبراؤها الفنيون الذين يختارون لها مشترواتها من الأعمال الفنية بغرض الاقتناء أو الاستثمار بالبيع داخل مصر وخارجها..

يواصل بنفس الحماس: ممكن أيضاً كما فعلت إحدى شركات البترول العالمية إقامة المسابقات الفنية وغيرها.. لكن ما يعنينى هنا فى المجال الأول هو الفنانون التشكيليون لأن تسويق إنتاجهم هو فى الحقيقة مشكلة كبرى يجب أن نهتم بها.

هذا الشعور العام بالصحوة هو مسئولية الجميع للنهوض بالحركة الثقافية والأدبية.. وهو واجبنا الآن.. أما أنا فأحلم الآن بإصدار مجلتين:

المجلة الأولى: خاصة بالترجمة لا تنشر مقالا مؤلفا وانما تقتصر على أن تنقل لنا كل ما هو جديد فى الآداب العالمية.

هنا لابد أن ننتبه إلى خطرين .. أولهما أننا يجب أن نسأل أنفسنا: هل وصل النص الأصلى الى القارىء؟ وهل وصل إليه بشكل معقول أم بشكل مشوه؟

والثانى أن مايشربه الشباب المصرى الآن من الثقافة الغربية يصل إليه فى صورة مشوهة، وذلك لانصراف كبار المترجمين عن الترجمة، ولصعوبة المصطلحات.. وللآن فان هناك قضايا فى الترجمة لم يتم الوصول فيها الى اتفاق.. ولهذا أقترح أن تتصل مجلة الترجمة هذه بشكل مابمجمع اللغة العربية ليوجهها فى المصطلحات الحديثة، وأن تكون كذلك على صلة وثيقة بكل المترجمين، وأن تطالب الذين يصدرون كتباً مترجمة بأن يذيلوا كتبهم بثبت يوضحون فيه المصطلحات أو الكلمات الجديدة التى تطوعوا بترجمتها لتقييمها.

أما المجلة الثانية فاسميها« مجلة المجلات العربية» على غرار «المختار» أو «ريدرز دايجست» لأننا عمليا لا نستطيع أن نلاحق كل ما يصدر فى العالم العربى من مجلات أدبية وفكرية وثقافية وفى كل عدد منها مقالة أدبية أو أكثر على جانب كبير من القيمة والأهمية.. فمن الذى يستطيع أن يلاحق هذا الكم كله؟ وبعض هذه المجلات - خاصة مجلات المغرب العربى- لانعرفها لأن أكثر اهتمامنا منصرف الى مجلات المشرق العربى.

هذه المجلة الجديدة سيكون عليها أن تختار لنا أهم ما تنشره هذه المجلات المختلفة لاطلاعنا عليه.

ستواجهنا هنا مشكلة حق التأليف ويمكننا التغلب عليها بالأتفاق على أن إعادة نشر المقال لن يكون بنصه إنما بتلخيصه والإشارة إلى أهم ما جاء فيه. مثل هاتين المجلتين فى رأيى يجب أن تكونا من مسئولية وزارة الثقافة وهى التى تتولاهما ويجب عليها هنا قبل إصدارهما أن تدرس إمكانيات التوزيع والاشتراكات، لأن هذه مسألة لاتقل أهمية عن مجرد اصدار مجلة.

وفى أوروبا الآن جاليات عربية عديدة ومجال التوزيع الآن أوسع مما كان فى الماضى، فكل الظروف الآن مواتية لمثل هذا العمل، فلابد من دراسة سوق توزيع هذه المجلات. ولو أردنا أن ننشىء مجلة عامة .. هنا أقول لك من تجربتى الشخصية إنه مالم تكن هذه المجلة العامة منشئة لتيار فكرى جديد أو مدافعة عن تيار أو مدرسة جديدة تحاول أن تثبت أقدامها أو تجمع حولها الأنصار فمن العسير عليها الاستمرار لأنك تعلم أن الاتهام الذى وجه إلينا خلال تجربة إصدار المجلات الثقافية فى الستينيات أننا لو نزعنا غلاف أى مجلة لما عرفنا أى المجلات هى وأين تصدر وأى فكر تتبنى وفى أى زمان!...

وأشد ما يحزننى أن الشباب المصرى المثقف بسمع عن نصوص أجنبية أو وثائق بعينها.. بل ويتحدث عنها ويستخدمها فى حواره ويناقشها لأنه يقرأ عنها دون أن يصل اليه النص الأصلى مثل مقدمة كرومويل أوبرايتون وغيرها وأملى أن تضع أى مجلة أدبية تصدر نصب عينيها بين يدى القارى العربى الترجمة الأمينة لكل النصوص والمصادر التى تصدر فى الخارج، ونسمع بها ونتحدث عنها دون أن نقرأها!

تسألنى عن مستوى الثقافة: لماذا هبط؟ ما هى أسباب هذا الهبوط؟ ولماذا هذا الجيل بلا أبوة؟

صحيح أن هناك مجلات أدبية وفكرية تصدر فى العالم العربى ومصر ويشترك فى تحريرها مصريون، لكن الكلام هنا عن المستوى.. وما نأسف له أشد الأسف هو هبوط مستوى التعليم وهو السبب وليس النتيجة؟

تدريس اللغة العربية والأجنبية فى هبوط.. ولايمكن أن تزدهر أية حركة أدبية إلا إذا وصلت اللغة التى هى وسيلة الاتصال والمادة الأولى للكاتب إلى مستوى ممتاز. أما إذا هبط مستوى تعلم اللغة فحتما سيهبط المستوى الأدبى، لأن اللغة هى أساس هذا العمل الأدبى، لأن للغة القدرة على الايحاء.. فعندما ينبرى كاتب للتعبير عن نفسه ويحس بأنه سيكتب لغة سليمة سيحس أن لغته السليمة تقف معه هنا وتسنده وترعى فكره وتساعده حتى يجد طريقه الصحيح للكتابة. واللغة كائن غريب جدا لأنها هى الفكر نفسه.. فنحن نفكر من خلال اللغة.. فإذا لم تكن اللغة حية وراقية فإن مستوى الأدب لابد حتما يهبط.

والحقيقة التى لابد من الاعتراف بها هى أن مستوى اللغة العربية قد هبط .. حتى مستوى الخط العربى هبط وكنا فيما مضى ندرس الخط العربى فى مدارسنا، فإذا كان الشكل معيباً واللغة معيبة.. إذن فهناك خلل فى هذا البنيان اللغوى.

المسألة إذن هى أنه يجب على كل جهة من الجهات القادرة الوقوف فى وجه هذا التيار الهابط وأن تقوم بمسؤولياتها وتمارس دورها فى التصدى له، مثل الجرائد والإذاعة والتليفزيون.. يجب على كل من هذه الأجهزة أن يكون لديها مراجعها اللغوية ومراجعيها لتصويب اللغة بحيث لا تسمح بمرور جملة عربية واحدة معيبة إلى أذن أو عين المواطن العربى حتى فى نطقه للغة.. والأمثلة على هذه العيوب كثيرة تستطيع أن تضع يدك عليها بكل سهولة وفى أية لحظة.

المسألة إذن أنه لابد من حركة تكون تعبيراً عن إرادة هذه الأمة فى النهوض بلغتها وأدبها.

قلت: أتصور أن للمسألة الأقتصادية علاقة بهذا الذى يحدث على الساحة الأدبية، فتوفر مناخ اقتصادى مناسب يظهر فيه الإبداع الفنى- ولا نقول يزدهر- أمر ضرورى..

فقال: كلما جاءت سيرة الضغط الاقتصادى تصورت أننا نعالج جوادا «حرونا» لا يريد الخروج من الاسطبل.. لأننى أرفض أن أتصور أن الإنسان مجرد مادة.. فالثقافة والأدب لا تتعلقان بالجانب المادى للإنسان أو بطبيعته الحيوانية، وإنما هى تخاطب روحه وعقله، ومهما كانت الضغوط الاقتصادية الواقعة على الناس فليس معنى هذا أن جميع

القيم الروحية قد اختفت واختفى معها هذا الشوق الذى يخامر الإنسان حتى العادى والبدائى فى أن يجد وسيلة للتعبير عن نفسه والاتصال بالكون والتعبير عن الجمال، أو حتى مجرد إنشاء موال أو أغنية.. هذه نزعة للخروج عن القيود المادية الضيقة ولن تمحى، لأنها لو انمحت فهذا هو الموات العام. ولهذا فمازال عندى أمل فى أن أقول لكل شاب: أنت لست مادة فقط. أنت مادة وروح، فاذا وقع عليك ضغط اقتصادى فهو قد وقع على الجانب المادى دون الروحى.

لاشك أن العنصر الاقتصادى يؤثر على الجانب الروحى للإنسان.. لكنه تأثير مؤقت وعارض ولايمحو هذا الجانب ولايميته. لقد شاهدت شبابا فى فرنسا فى زيارتى الأخيرة يعانون من الفقر لكنهم لا يتنازلون عن حلمهم فى أن يكونوا فنانين أو كتاباً.. وشبابنا ليس أقل منهم فى القدرة على التحرر من ضغط المادة ..

سألته: من الملاحظ أن النقد الجاد نادر هذه الأيام أو شبه معدوم، ما هو فى رأيك السبب؟ وما هى مسئولية الرواد؟

أجاب: لا أريد أن أتجنى على الجامعة كما قد يبدو من كلامى، لأن الجامعة فى فترة من الفترات أوهمتنا أن الحركة النقدية هى اقتباس من الغرب.. والغرب تتوالى فيه النظريات النقدية واحدة بعد واحدة.

نحن فى حيرة..كيف نعالج الإنتاج الأدبى الحديث؟ مرة نقف على حدود النظرة الوجودية، ومرة نعالجه من زاوية كافكاوية، ومرة ثالثة نعالج زاوية اشتراكية. ولهذا نجد كثيرا من الإنتاج الأدبى يسقطه النقد العربى مثلما فعل الدكتور محمد مندور والدكتور محمد غنيمى هلال.. ولكن مع الأسف الشديد هذا التيار ضعف كثيرا وبعض نقادنا قد يتشيعون لنظريات بعينها، وهذا يضع قيودا على أحكامهم.

لقد أعجبنى أخيرا أن ناقدا مثل الدكتور رشاد رشدى فى كتاباته الأخيرة فى الأهرام قد ترك نظريات النقد واتجه إلى معالجة نظرية الفن. ونحن لانستطيع أن ندخل فى نظريات النقد، وأنا فى كل ما يكتبه الدكتور رشاد رشدى خاصاً بالفن أوقع باسمى تحت اسمه. أما فى النقد فمازالت بيننا خلافات كبيرة وكثيرة.

لكن السؤال هنا: هل هذا موقف أساتذة النقد فى الجامعات؟ هل هذا هو كل

ماتستطيع الجامعة أن تقدمه أو تخرجه لنا؟ أم هى مجرد كتابات فى الصحف والمجلات لأن الجامعة فى تصورى تسلك الطريق الأسهل، وما أن يصدر كتاب نقدى فى الخارج فما أسهل أن يترجم أو يعتمد عليه أستاذ النقد فى محاضراته.. فبدلا من أن تفيد جيل الكتاب توقعهم فى الحيرة.. وقد سبق لى أن قلت هذا على أثر كتابات الدكتور رشاد رشدى النقدية على كثير من الكتاب وكنت أنتظر من الدكتور رشاد رشدى أن يضيف إلى النظرية النقدية التى يدافع عنها قوله« هذا ما يقولون فى الخارج»، ولكن الفن أعلى وأبقى من كل النظريات النقدية، والكاتب يجب أن يلم بكل هذه النظريات ويحترمها لكن عليه أيضا أن يتحرر منها ولا يجعلها كالسيف البتار الذى يقطع رقبة أى عمل لاتنطبق عليه هذه النظريات.

قلت: والآن إذا انتقلنا إلى الجانب الشخصى الذى يمس يحيى حقى كناقد، وهو إجماع النقاد على أن يحيى حقى كاتب تأثرى بمعنى أدق.. ما هو ردك على هذه المقولة؟

قال: عندما أتأمل خطتى فى النقد أجد أننى قد وصلت إلى خطة تريحنى جدا، وأعتقد أنها سديدة. فماذا تقول هذه الخطة؟ تقول إن النص النقدى هو أولا نص أدبى. وكثيرا ما أقرأ مقالات فى النقد الأدبى فكأننى أقرأ مقالا فى الطب أو الهندسة لكثرة ما فيه من مصطلحات تصطك بعضا ببعض بحيث لا أتذوق لذة الأسلوب أو لذة الفكر.. لهذا فأنا أقول أولا إن النص النقدى مع احترامه للقواعد العلمية يجب أن يكون نصا أدبياً.. بل وجمالياً أيضا بحيث يتذوقه القارىء فى حد ذاته ولذاته.

ثانيا: أقول إن العمل هو الذى يوحى بالاتجاه الذى يسلكه الناقد فى نقده. فأنا لا أحدد مبدأ أو منهجا محددا سلفا ثم أطبقه على كل ما يقع تحت يدى من أعمال أدبية.. هذا ظلم للأديب.. ولكننى أسأل مثلا: هذه الرواية التى سأتعرض لها بالنقد ماهى ميزتها الأولى؟ إن كانت من نوع الدراسة الاجتماعية لوضع اجتماعى معين.. فنحن ندرسها من هذه الناحية. وهنا يلزم أن نتكلم عن خطر ارتباط الفن بمتغيرات زمانية، فماذا يبقى لهذا العمل بعد أن تزول هذه المتغيرات إذا لم يربطها الكاتب بالمعانى الإنسانية الأبدية الباقية التى تنقلنا من المعنى الخاص إلى المعنى العام.. هل هذا الأديب مثلا مختص فى هذه

الناحية التى عالجها؟ هل صدق فى وصف هذه الظاهرة التى يتعرض لها؟ ماهو مدى ثرائه اللغوى.. وهل يملك ناصية اللغة ملكية تامة فإذن نحاسبه على مقدار توفيقه أو عدم توفيقه فى اختيار موضوعه ولغته وأسلوبه؟.. وكما نعلم جميعا فلكل فن صنعة.. وهنا يجب أن نحاسب الفنان على صنعته وقد امتلك أدواتها من حوار وحوار داخلى ووصف وسرد وتحليل وتأمل.. هى كلها أوراق فى يده أو أدوات إيصال يختار منها لكى يوصل مادته للقارىء.. والبراعة فى تحوله من ورقة الى ورقة.. وكيف بدأ؟ وما هى أول جملة؟ وماهى أخر جملة.

ثم أخيرا قلت لنفسى: ولماذا لا نجمع كل هذه الأبواب التى نستخدمها عند التعرض لأى عمل أدبى؟ لماذا لا نجمعها فى باب واحد اسميه أنا «النقد الشمولى»؟ والاتهام الوحيد الذى يمكن توجيهه لهذا النقد هو القول بأنه نقد تأثرى.. وأنا هنا لا أرى فى ذلك عيباً على الإطلاق لأن النقد لايجب أن يكون قوالب جامدة تفرض فرضا على العمل الأدبى حتى تخنقه. وهنا تحضرنى كلمة سبق أن قلتها ولا بأس من أن أكررها هنا.. وهى أن الطفل يكسر اللعبة كى يعرفها، أما الفنان فإنه يعرف اللعبة لكى يكسرها.. ولا يمكن أن يكسرها إلا بعد أن يعرفها.. وأنا هنا لايعنينى الناقد قدر ما يعنينى الفنان.. لأن الحركة الأدبية هى الإبداع والناقد ليس الا خادما للفنان يأتى بعده فى القيمة وظهور شاعر أو كاتب يساوى عندى تماما حدوث ظاهرة كونية ويوم مولد شاعر أو فنان هو يوم عيد فى العالم كله.. لهذا يسحرنى كثيرا أن أتأمل علاقة الشاعر بمجتمعه فأجد أن العرب قد ضربوا لنا مثلا عظيما فى اهتمامهم بشعرائهم.. فما أن يظهر فى القبيلة شاعر حتى تطوف به القبيلة أسواق العرب.. لأن ظهور شاعر فيها هو مبعث فخر لها، ليس فقط كداعية للقبيلة، ولكن وظيفة الشاعر كانت أعمق وأبعد من هذا. تأمل مثلا قصيدة كقصيدة الشاعر «ذى الرمة» فى وصف الصحراء وهى من ١٤٠ بيتا.. هل كانت كلها فى الدفاع عن قبيلته؟

إذن معنى هذا أن عمل الشاعر كان يحل محل التصوير والمسرح والسينما باختصار كان الشعر يحل محل الفنون مجتمعة.. ولهذا كانت القبائل تستمع لهذا الشعر وتعنى بقائله لانها كانت ترى فيه فنانا.. ولهذا كانت العرب تسأل الشاعر: هل مررت بوادى عبقر؟ أى انها كانت ترى فى الشعر خروجا على المنطق والمادة والمألوف.. أفندم؟!

ويواصل يحيى حقى : مثال آخر.. قصيدة كالبردة للبوصيرى رفعت قائلها إلى مصاف أئمة المسلمين وأصبحت القصيدة عملا خالداً مقدساً عند المسلمين.. وأقيم للشاعر مقام وكتبت قصيدته بالذهب على جدران مقامه.. وأصبحت هذه القصيدة تربع وتخمس ويصبح لها أيضا نهج يسير عليه غيره من الشعراء..

إذن جوعنا الآن ليس إلى الناقد بل إلى الفنان.. وقد سبق أن قلت وأكرر أن العالم العربى فى محنته الآن محتاج إلى شاعر مثل إقبال يوقظ المسلمين ليبصرهم بجوهر دينهم، لأن المشكلة الآن بكل أسف أن القشور الإسلامية كثيرة لكن أحداً لايقترب من الجوهر.. هل من المعقول أن يظل المسلمون إلى الآن يسألون: هل كحل العين حرام أم حلال!!.. فى رأيى أن من يسأل هذا السؤال لايفهم دينه.. وللأسف الشديد فإن رجال الدين منغمسون فى القشور.. وأقولها بصراحة وقد يهاجموننى على هذه الصراحة.. وأنا أدعوهم إلى رفض مثل هذه الأسئلة المتمحكة وأن يوجهوا اهتمامهم الى الأصول والجوهر وأن ينصرفوا عن الفروع والهوامش.. وأن يرفضوا الإجابة على أى سؤال متمحك من سائل بليد مازال حتى اليوم يسأل: هل المونيكير حرام أم حلال؟ وأن يكون ردهم عليه قاسياً لأن مثل هذا السؤال لا يصدر إلا عن إنسان نائم يغط فى جهله ولابد من توبيخه لتخلفه وتبلده وقصوره عن فهم الدين الإسلامى..

كنت قد بدأت ألاحظ بعض علامات التعب على وجهه فسألته إن كان يريد أن نتوقف.. هز رأسه: بل نستمر..

قلت: أستاذى.. قد تغير العصر فتغير معه فهمنا لمعنى البلاغة بعد أن ابتعدنا كثيراً عن فن اختيار الكلمة الشامخة والبنيان الرصين. هل يعنى هذا أن عصر البلاغة قد انتهى؟

قال فى حماس: أهمية هذه القضية تظهر فى كل أشكال التعبير الأدبى.. فلكل شكل أدبى لغته.. الرواية لها لغة. والقصة القصيرة لها لغة، والمسرح له لغته.. فالبلاغة هنا هى بلاغة لغة هذا الشكل فكل لفظ فى الرواية لابد أن يخدم القصة القصيرة أو الشعر.. ولا علاقة له هنا بالبلاغة بمفهومها القديم لأنها هنا تصبح ضارة.. ولو أن أديباً تشبع بالأدب القديم وبأساليب البلاغة فيه وحاول الكتابة بها اليوم فإنه بهذا الشكل يفسد عمله.

بلاغة الأديب اليوم هى فى إيصال النص إلى القارىء بأتم الوضوح وأتم الدقة، وهذا

يقتضى من الكاتب معرفة عميقة جدا باللغة وتركيب الجملة وترتيب الألفاظ وسياق الكلام كى تبلغ رسالته إلى القارىء.. وقد ثبت بتجربتى أنا أنك حينما تفعل هذا تجد أن النص الذى كتبته يرقى إلى أرقى مستويات البلاغة العربية وان كانت ليست هى البلاغة اللغوية القديمة.. لماذا؟ لأن كل لفظ قد استقر فى مكانه، وهنا يكتشف الكاتب أن ألفاظه التى تبدو حرة أمامه ليست حرة وإنما هى مستعبدة بعد أن وضع كلا منها فى مكانة لا تتزحزح عنه لأنها هنا تخدم غرضا وقفت على خدمته.

وهنا أقول إن وظيفة الفن هى « تخليد العابر وعبور الخالد» تماما كلقطة الكاميرا عندما تسجل لحظة لتخلدها فى لوحة.. ولكن هذه اللوحة أيضا محكوم عليها بأنها فى شرعة الزمن الى زوال، ويستوى فى هذا لوحة الرسام أو قصيدة الشاعر أو رواية الكاتب، لأن كل عمل فيه جانب مأسوى هو كيان الانسان نفسه ووجوده فى الحياة.. فكله محكوم عليه بالفناء.

واصلت وقد شجعنى حماسه: فى كتابك« أنشودة للبساطة» تقول: «المثل الأعلى فى ذهنى للكاتب هو الذى يشعر أن جميع ألفاظ اللغة تناديه لتظهر للوجود على يديه.. لا من قبيل الترف بل لأن اتساع رقعته الذهنية والروحية هى التى تتطلبها جميعا».. ألا يتعارض هذا مع ما تنادى به من الحتم والإيجاز والتحديد والوضوح للكاتب عند اختيار ألفاظه؟ ثم كيف يكون الكاتب على ما تطلبه منه من الثراء، وكيف يكون مع هذا بخيلا كل هذا البخل؟

أجاب مبتسما فى وداعة: منذ أن أمسكت القلم لأكتب فى سن السادسة عشرة وقد ألزمت نفسى بهذا المنهج: لا كلمة زيادة ولا كلمة أقل، ولا تعارض هناك لأن الكاتب الذى على هذا الثراء يستطيع بكل اليسر أن يختار من الألفاظ ما يناسب غرضه تماما. أما الكاتب الفقير فهو الذى يظل يلف ويدور حول المعنى ويفرط فى الكلام لأنه لايجد الكلمة المناسبة التى تغنيه عن كل هذه الثرثرة والتى إذا وضعت فى مكانها استقرت فيه، فهى من العمل بمثابة الحجر من البناء، إذا رفعت منه ولم يتأثر المعنى فهى كلمة زائدة ولابد من حذفها فى الحال. أما إذا رفعت من العمل فتخلخل المعنى فلابد إذن أن تبقى فى موضعها لأن غيابها يؤثر على العمل كله وهنا أعود لأقول إن البلاغة هى فن وصول المعنى الى القارىء بأيسر السبل.

البلاغة هنا تصبح في انعدام الوسيلة. وهذا يجرنا إلى سؤال: ما هي وظيفة النحو؟ النحو هنا لايصبح مجرد قواعد.. وظيفة النحو هنا تصبح تماما كوظيفة الزيت إذا وضع على الآلة لتسهيل حركتها، ومعنى هذا أن ينساق المعنى في سهولة الى ذهن القارىء.

وكل قواعد النحو كقواعد الفن ليست نهائية.. وقد ضرب لنا القرآن المثل.. فكما تعلمنا في النحو أن الضمير لابد أن يعود الى سابقه، لكننا نجد أنه حتى في القرآن فإن الضمير يرد قبل السابق في كثير من الآيات.. إذن ليست هناك قواعد نهائية.. وعلى كل حال فقواعد النحو مقصود بها منع الغموض واللبس وأن يسير الكلام في العمل سلساً منسقاً.

يستطرد يحيى حقي بعد لحظة تفكير.. ينقر بسبابته على خشب المنضدة بيننا:

الفن كما ترى هو الثراء، والأديب لابد له من أن يتصف بفحش الثراء النفسي، لأن غاية الفن هي الذهاب الى الغايات القصوى.. وقد ضربت مثلا على أهمية الشعر على القصة.. كيف نفهم مثلا الغيرة إلا إذا وصلت إلى غايتها. وهناك بيت من الشعر يساوى في إيجازه رواية كاملة.. يقول البيت الذى يصف علاقة حب انقلبت إلى كراهية:

«كدبيب الملال في مستهامين إلى غاية من البغضاء».

فالشاعر مثلا لم يقل «كدبيب الملال في محبين» واختار بدلا منها كلمة «مستهامين» كدلالة على بلوغ الحب أقصاه، ثم تحوله إلى البغضاء لا مجرد الكراهية.. وتصور محبين على هذه الدرجة من الهيام يدب بينهما الملل حتى يتحولا إلى أقصى درجات البغضاء.

أليست هذه قصة كاملة أوردها الشاعر بأشد الإيجاز في كلمات قليلة؟

والمأساة هنا هي في الانتقال من غاية قصوى إلى غاية قصوى أخرى، لأن مجرد الحب الفاتر والكراهية الفاترة لا تصلح موضوعاً للفن.

فرغنا من شرب القهوة الإكسبرسو..

قال وهو يضع فنجانه: بارك لي..

قلت: مبروك.. لكن لماذا؟

قال: أقلعت عن التدخين.. ألم تلاحظ؟ قلت مستدركا: آه.. فعلا.

أشار إلى لوحة له أمامنا وقال: رسمها لى الفنان أحمد مرعى.. ثم التفت يشير إلى لوحتين فوق رأسى قائلا: وهذه للفنان حسن سليمان.. والتى إلى جوارها للفنان سعد عبد الوهاب.. تابعت إشارته بعينى.. قال بعد لحظة صمت: والآن ماذا كنا نقول؟

قلت: صادفت ولاشك نماذج عديدة لأخطاء وعثرات الأدباء الشبان فى خطواتهم الأولى. كنت بصبر الأب وسعة صدر الأستاذ تقومها لهم وتصحح لهم مسارهم حتى صار منهم اليوم أدباء لمعوا.. ماذا كانت نصيحتك لهم.. وبماذا تنصح اليوم أجيال الشباب الذين يدخلون عالم الأدباء تملأهم الرهبة من معانقة الكلمة؟

قال مؤكدا على كل كلمة: كان كل ما يهمنى أن أقول لهؤلاء الشبان إن أهم ما يحتاجون إليه فى كتاباتهم هو التجربة الذاتية.. بمعنى أنهم يجب ألا يتأثروا بالنقد أولا، ولكن عليهم أن يضعوا همهم فى إجادة العمل الذى يتولونه ثم يجدون أنه هو الذى ينتقل بهم خطوة بعد خطوة. ومع ذلك احتجت أن أقول لهم بعض الأشياء البسيطة التى ظننت أنها قد تعينهم على هذا، من ذلك قولى لهم إن كتابة القصة لها أسلوبان:

أسلوب «أنا كنت عندهم وأتيت وعملوا كذا... وكذا... وكيت» وكنا نلاحظ فى هذا الأسلوب كثرة كلمة كان.. وكان.. وكان.. ولعلك أنت نفسك تذكر أننى كنت بقلمى أشطب كلمة «كان» هذه كلما أطلت برأسها فى القصة لتخفيف ثقلها على الأسلوب.. ومادمنا بدأنا بكلمة «كان» فكل الكلام بعد ذلك محمول على الماضى.

وكنت أقول لهم: انتقلوا فورا إلى المضارع لأن المضارع هو الذى يعين على اظهار الحركة.

بل ذهبت إلى حد النصح لهم أن يبدأوا قصصهم بالفعل المضارع لأنه يدل على الحركة.

وهناك أسلوب أخر يقول: « تعالوا بنا ننظر من ثقب هذا الباب لنرى ماذا يفعلون».

أقاطعه: لكن أين وجهة النظر الفردية هنا ـ إذا كنت توافقنى أن الفن فى النهاية هو وجهة نظر فردية ـ مادام الفنان سيتحول إلى مجرد عين ترقب ما أمامها لتضعه كما هو على الورق. هنا يتحول الفنان إلى كاميرا محايدة وليست مشاركة؟

بجيب يحيى حقى متجاوزا مقاطعتى: هذا يجرنا الى تفسير معنى أن المؤلف لايتدخل وأنا دائما أقول أنه لا حياد فى الفن.

المشكلة أن كل فن له شكل.. لكن مادمنا بصدد القصة بمفهومها الحضارى الحديث، فالمؤلف عندما يعبر عن أغراضه بحركات أبطاله فيعطون للقارىء الانطباع الذى يريده الكاتب دون أن يتدخل هو ليضع رأيه.. المؤلف فى النهاية له غرض وله فلسفة يسعى إلى إثباتها وله وجهة نظره، فهو إذن ليس كاميرا كما تقول لكنه يستوعب ويهضم مايراه ليعيد إخراجه لنا من خلال ذاته الخاصة جدا بعد حذف كل التفاصيل التى لا علاقة لها بغرضه من قصته، ويقفز من موقف الى موقف حتى يصل إلى إيصال فلسفته إلى قارئه.

ما أريد أن أقوله هنا هو أن الأدب خلاصة إحساس عام.. وأنا ضد القوالب الحديدية التى تقيد الإبداع، وأطالب بالحرية وبالانطلاق من حيث الشكل حتى يتمكن الأديب من الإبداع.

نهض واقفا يقول: تعال أريك مشهداً جميلا لسراى الملك سعود خلف البيت..

وقفنا فى الشرفة نراقب المشهد.. قال وهو يشير لى أن أجلس: أيام!.. فهمت مقصده عن تقلب الأيام بالملك سعود.

قلت مغيرا مجرى الحديث: لعلك توافقنى فى أن الفنان وحده هو الكائن الوحيد الذى قد يذوق الموت مرتين: واحدة حين ينتهى أجله وثانية قبلها حين ينضب معينه.. وماجنازات بعض كبار الأدباء إلا تشييع لرجل كانت جثته تمشى على الأرض بين الأحياء.. نعم قد يموت الفنان فى قمة مجده وتدفق انتاجه كموزار وسيد درويش.. ولكن أيضا هناك فنان عمره هو عمر فنه.. ينقضيان معاً، وهو الوحيد الذى لايكذب على نفسه فهذا هو جلاله وهذه هى مصيبته، وهو وحده الذى يحس ألم موته الأدبى وهو على قيد الحياة.. وأنت- أقول له- قد قسمت الفنان إلى أنواع ثلاثة: أولهم فنان ينظر الى تجربته الأدبية التى انقضت أمامه غير آسف عليها وتراضيه نفسه على اعتبار أن مامضى تجربة قد انتهت بانتهاء زمنها.. وضربت مثلا على ذلك بالأديب رامبو، وثانيهم فنان يكفيه أنه بلغ القمة وأنه زرع طريقة إليها بالزهور وقد حان وقت التمتع بها، وضربت أيضا مثلا على ذلك بالشاعر التركى عبد الحق حامد.

أما ثالثهم فهو فنان انقلب شخصاً مختلفاً منقطع الصلة بماضيه، مثلما حدث مع أديب فرنسا لامرتين الذى انقلب انسانا شرها فج السلوك.

أضيف: واسمح لى أن أقول إننى أعتبر قرارك بالتوقف عن الكتابة جاء صادراً عن ذكاء شديد، فأنت باختيارك قررت لنفسك متى تتوقف بينما أنت فى زهوة مجدك وقمة عطائك الأدبى والفنى وقبل أن ينضب معينك.. الآن أسألك: من أنت بين هذه الأنواع الثلاثة.. وأرجوك أن تسامح جرأتي!!

يقول بتسامحه الشديد المعروف عنه وابتسامته تسبق كلامه: ماسأقوله هنا سأقوله لأول مرة.. لعلك تعلم أننى بدأت الكتابة منذ كانت سنى ست عشرة سنة، وتوقفت ولى من العمر خمس وسبعون سنة.. أى أننى ظللت أكتب حوالى ستين سنة.. وكأى أديب غيرى تناولتنى الأقلام بالكتابة عنى.

صحيح أن ما كتب عنى ليس كثيرا.. لكن ما كتب عنى فى السنوات الأخيرة هو بالضبط ما كنت أطمح إليه وأريد لنفسى أن تصل إليه.

فالكاتب إذن ينبغى ألا ييأس من أن الاعتراف به سيأتى فى يوم من الأيام.. لا أقصد أن ما كتب عنى كان مدحاً لكن الذى أقصده أن ما كتب عنى أخيرا فيه وصف صادق تماما لما أريد أن أفعله وللمثل العليا التى أخدمها والأغراض التى أريد أن أحققها، لا من قبيل المدح، ولكن من قبيل الوصف والتقييم.. فأنا مع دهشتى حمدت الله لأننى أحسست أن هذا هو التتويج الذى يجب أن أقف عنده فوقفت.. وأن ما كنت أريد أن أقوله قد بدا يتكشف ويبين. وكما سبق أن قلت مرارا فأنا قد دخلت هذا الميدان من بابه الضيق لأن الحقيقة أن كل إنتاج عندى كان مصحوبا بهزة جسمانية وروحية شديدة جدا.

وسأضرب لك مثلا كيف أكتب.. فأنا قد أجلس الى مكتبى حوالى سبع ساعات متصلة لأكتب نصف صفحة فقط. لذلك أحس فعلا بأننى استنفدت كل قواى خلال هذا المشوار الطويل وأريد الآن ان أتمه فى هدوء.

أقول مسترسلا: سمعناك دائم القول بأن «التعبير الأدبى ما هو فى نهاية الأمر إلا تحويل الخاص إلى العام»، ثم تضيف فى موضع أخر وصفا آخر مناقضاً تمام المناقضة لما نفهم ونعرف وهو أن «التعبير الأدبى هو تحويل العام إلى الخاص».. فكيف يتفق الوصفان عندك؟

يجيبنى: الآن وأنا فى حالة اليقظة وامتحان النفس أتبين أنه لا تناقض بين القولين بل

أرى رأى العين ان لا وصول من الخاص إلى العام إلا بعد الوصول أولا من العام إلى الخاص.

فلا قيام لصدق العام إلا بقيام صدق الخاص محددا تمام التحديد.. بل لعل هيامي بهذا التحديد مرجعه الوصول إلى العام الخاضع لما يلزمه من التجريد والتخلص من قيود الزمان والمكان بل ومن خصائص اللغة.

فصائد السمك عند هيمنجواى فى «الشيخ والبحر» هو صورة صادقة محددة لصياد سمك فى جنوب أمريكا، وزوج الاحذية القديمة عند فان جوخ لا مثيل له فى العالم. والفلاح الذى رسمه الفنان الرومانى جريجورسكو ينطق كل خط فيه أنه فلاح من رومانيا. من أجل هذا وحده بلغت الصورة مرتبة الدلالة العامة فإذا بلغت هذه الدلالة العامة تخلصت من قيود الزمان والمكان والظرف العارض، بل تخلصت من خصائص اللغة أيضا، وهى آخر وأصعب قيد ينكسر هنا. حينئذ يتوجه الأدب برسالته إلى جميع الناس، ومن هناك كما نقول دائما يبدأ يكتسب صفته العالمية انطلاقا من المحلية: فصياد هيمنجواى يصبح صياد سمك حيثما وجد وزوج الأحذية القديمة فى لوحة فان جوخ تجده فى أى دكان إسكافى فى أى بقاع الأرض. وذبيحة القصاب فى لوحة رمبرانت تجدها فى دكان أى قصاب فى أى مكان تحت السماء، وفلاح جريجورسكو الروما كأنك تعيش معه فى ريف مصر، ذلك لأن عمل الفنان الحق هو تجريد الشىء من ملابساته العابرة حتى لاتبقى إلا سريرته وجوهره.

يضيف يحيى حقى: وأعجب من هذا.. اننى مع إيمانى بكل هذا الكلام - ولا تندهش - أواظب على نصيحة أصدقائى الذين يقرأون على أوائل قصصهم بعكس ما قلت منذ قليل وعلى خط مستقيم، فتجدنى أقول لهم «القصة يا أبنائى هى فى النهاية تحويل العام إلى الخاص» كيف؟ أنت تريد أن تحدثنا عن إنسان بالذات.. عن طائر بالذات.. عن منضدة بالذات فينبغى لك أن تفرزها على العموم والشيوع وتحددها لنا تحديدا لايقبل الابهام أو الاختلاط بغيرها.

هذا المطلب يقتضى منك قدرتين عسيرتين فى وقت واحد:

الأولى: هى قدرة قاموسك على الاتساع بحيث يشمل جميع الأنواع والفصائل، فتعرف مثلا اسم كل طائر وكل زهرة وخصائص كل منها.

وهنا أضرب لك مثلا ألمسه بنفسى فيما أقرأ من القصص: يقول الكاتب «ورفع بصره فرأى طائرا يحلق فوق رأسه».

هنا أقول له: كان ينبغى عليك أن تقول « فرأى غرابا أو هدهدا أو حدأة أو صقرا.. إلخ».

أو أسمع أحدهم يقول « فقطف زهرة وراح يتنسم عبيرها»، وأقول له: هنا كان ينبغى أن تقول: «فقطف ياسمينة أو قطف قرنفلة أو فلة. إلخ».

أو قد يقول كاتب مثلا: « ودخل حجرة قديمة الأثاث فيها منضدة».. هنا أقول له: أكمل وقل: «منضدة من خشب أبيض اغبر طلاؤها أو انفرجت قوائمها».

أنت مثلا قد تصف بطل قصتك بأنه شيخ ثم تتركه وتتركنا وأنت تعلم أن الناس لايشيخون على هيئة واحدة.. فهذا فقد أسنانه.. وهذا انحنى ظهره وثالث كف بصره.. فينبغى إذن أن تصف لنا شيخوخة هذا الشيخ بالذات. وكذلك الحال اذا اتحدثت عن شاب ينبغى أن تصف لنا كيف تجلى عليه شبابه الذى اختص به.

والثانية : هى التحديد، لأنه هنا أيضاً ينبغى التحديد مادمت تتحدث عن شىء أو فعل محدد محصور فى إطار القصة التى تكتبها.

ومادمت قد أدخلت فيها من بين عناصرها زهرة أو طائرا أو منضدة فينبغى لك أن تحددها، وليست هذه التحديدات مطلوبة هنا (لخاطر سواد عيونها) بل لأن بعضها يتركب على بعض ويصب بعضها فى بعض. حينئذ تكتسب قصتك طابع الصدق.. أى الايهام بواقع، فالفن ليس هو الواقع بل إيهام بواقع. وليس من التناقض بالطبع القول بأن هذا التحديد اذا لزمك مرة وأنت تقتبس من الواقع منضدة موجودة فعلا رأيتها أنت بعينيك، فانه يلزمك مائة مرة حين تصف منضدة من صنع خيالك، لأنك هنا أنت الصانع.

قلت معترضا: لكن ألا يتناقض هذا القول مع مقولتك بأن الفن هو رفض تلقى الواقع وتقديمه فى صورة تقريرية؟

أجاب فى كثير صبر: صدق العمل الفنى هنا لا يرتبط بزمان أو بمكان، لأن ارتباطه بقيود الزمان والمكان يجعل منه ظاهرة تسقط بسقوط أسبابها وملابساتها التى ارتبطت بها.. وبراعة الكاتب هنا تتجلى فى الوصف والحوار والسرد والحوار الداخلى.. فهذه هى كما سبق وقلت لك أوراقة التى يختار منها، وهنا تكمن الصنعة لأنه لا فن بلا صنعة.

وهى صنعة مختفية بالطبع وتتعالى عن الصنعة التقليدية.. لكن فى النهاية العمل الأدبى أو الفنى له أيضا صنعته.. وهى التى تتجلى فيها براعة الأديب ويختلف فيها كاتب عن كاتب.

....

انظر فى ساعتى.. تقترب من الرابعة.. فى الجو لسعة برد خفيفة فى عصر ذلك اليوم من شهر يناير عام ١٩٨٣ .. أقول وقد اقترب حوارنا من نهايته:

ظهر أخيرا ما نسميه بالأسلوب التحدثى الذى يسقط الوصف من حسابه، ثم تلاه أسلوب الموال بتقديم الفاعل على الفعل، وكلها محاولات فى الأسلوب أو فى الشكل. ما هو مستقبل هذه المحاولات وأشباهها فى نظرك؟

يجيب: أعتقد أن أسلوب الموال هذا بدأ مع بداية اهتمامنا بالفنون الشعبية وتمحكنا فيها والانجذاب مرة أخرى إلى كلام الأغانى الشعبية والموال. ومن هنا كان اتجاه بعض شباب القصة القصيرة الى اتخاذ أسلوب الموال طريقا لهم، ولا بأس بهذا على الإطلاق.. انما المهم هنا أن هذا الأسلوب قد يصلح فى قصة قصيرة، لكن هل يصلح لرواية؟ طبعا لا يصلح.. إذن أنت ترى أنها مسألة مرتبطة باختيار الشكل للموضوع ذاته، فكل موضوع له شكل ويجب أن نبحث عنه .. هذه المدارس التى ذكرتها وغيرها كثير ومن الفائدة أن يحدث هذا، فالقارىء الآن يضيق ذرعاً بأسلوب المنفلوطى والرافعى.. وعندنا اليوم أدباء مثل اسماعيل ولى الدين يعتمدون على اللمسات السريعة كضربات فرشاة الألوان. بل إن فى بعض أعمالهم شخصيات تظهر وتختفى وإذا سألتهم عنها يجيبون أنهم هكذا رأوها ولامبرر لاستمرار شخصية إذا ظهرت فى العمل ثم اختفت.. وهذه طبيعة العصر الذى نعيش فيه: الضيق من السرد، من موالاة المعاناة، المهم هو الصدق فى التعبير عن النفس وأن ينجح الكاتب فى أن يحدث هذا التأثير فى نفس القارىء، وأنا أحب هذا النوع من الكتابة لكن بشرط العمق والدراية باللغة اكثر مما هو موجود حاليا حتى يصبح النسيج ثرياً. وأنا دائماً أشبه العمل الفقير بالحصيرة ليست سوى عودين من قش مجدول، لها سطح ولكن ليس لها عمق. أما العمل الثرى فهو ان جاز لنا التعبير كالسجادة العجمية، لها عمق وفيها مئات العقد والغرز المختفية تحتها.

وأجد السؤال يلح داخلى فأقول: أستاذى هنا سؤال يفرض نفسه: كيف يمكن النهوض باللغة إذا كانت هى الأساس الذى ينبنى عليه أى عمل أدبى ثرى؟

يجيب: المسئولية هنا مسئولية الأديب نفسه، وعليه أن يبحث كيف يمكن أن تعبر اللغة عما يجيش داخله. لابد إذن أن يكون عنده بصر وإحساس باللفظ وإيقاع اللفظ وصلات الألفاظ بعضها ببعض. لابد أن يحفظ الشعر القديم عن ظهر قلب.. لابد أن يقرأ القرآن ليطلع على كنوز اللغة فيه. أنا نفسى كنت فى زيارتى الأخيرة لفرنسا أسير فى الشوارع أردد أبياتا من الشعر الجاهلى أمتع نفسى بسحر لغتها.

قلبت أوراقى لحظات.. توقفت عند كلماته. رحت أعيدها عليه. قلت: الفن عندك هو وليد الدهشة. ودهشة الفنان للقاء الحياة كل يوم دليل على تجددها ونفى رتابتها. وبدون هذه الدهشة يفقد الفنان نضارته، ويستحيل الجديد بين يديه مألوفا.. فى حين يتحول المألوف – مع الدهشة – بين يديه جديداً.

سرح بعينيه مسترجعا السنين: هذا كلام قلته منذ عشرين عاما.. ولو أتيحت لى الفرصة مرة أخرى لقوله فلن أمل من تكرار قوله مرة ثانية وثالثة.

قلت قبل أن أجمع أوراقى: كيف ترى الساحة الأدبية الآن؟ هل هى فقط نجيب محفوظ ويوسف أدريس وعدد من الأدباء يعدون على أصابع الكف الواحدة؟ هل هذه هى كل مصر الأدبية.. هل هذا هو كل ما تستطيع مصر أن تقدمه؟

قال ضاحكا يعترض على سؤالى: لا. لا.لا . هناك لاشك بعض الكتاب، وللأسف الشديد يظهرون ويختفون.. ولكن يبقى الأمل فى أن يعودوا. وفى باب القصة القصيرة مثلا أنا أضع على رأس من انتظرهم عبد الحكيم قاسم، وقد التقيت به مؤخرا فى برلين.

أضع على رأس القائمة أيضا محمد روميش الذى كتب عن القرية المصرية.

كما أننا يجب ألا ننسى كذلك نعيم عطية ويوسف الشارونى وادوار الخراط.. وهؤلاء انتاجهم موجود وسيتجدد.. ونحن نغمطهم حقهم إذا لم نذكرهم. لن ننسى أيضا أبو المعاطى أبو النجا. ومن الشباب الآن مازال عندى أمل كبير فى إبراهيم أصلان ومحمد إبراهيم مبروك وحافظ رجب. وقد فجعت لوفاة يحيى الطاهر عبد الله لأنه كان نفسا فريدا فى القصة.. ومصر مازالت تعطى.. وستكتشف فى المستقبل القريب أسماء جديدة ستلمع.. والمسيرة كما أقول لك مستمرة ولن تتوقف.

رأى حـــر
فى الأهرام

رأى حر فى «الأهرام»..

فى مقالين له من بين مقالاته النادرة التى كتبها يحيى حقى للأهرام تحت عنوان «رأى حر» وبعد ضغط الإلحاح الشديد من صديقيه الدكتور حسين فوزى والدكتور لويس عوض.. كتب الأديب الراحل مقاله الأول بتاريخ ٢٣ أكتوبر من عام ١٩٦٠ تحت عنوان «مطاردة المتسولين وأخبار أخرى» يقول:

صديقى هذا من عادته أن يقرأ الصحيفة من أول سطر الى آخر سطر، لا لأنه محال على المعاش ولا لشدة نهمه للمعرفة، بل لشدة بخله، فالسفه عنده ليس فى الصرف وحده بل أيضا فى العزوف عن القبض، ما دام قد دفع القرش ثمنا للصحيفة كلها فلابد أن يعتصر منها حقة كاملا، وإلا فهو الغبن والحماقة، سأحدثك عن نوادره فى فرصة أخرى، يكفى الآن أن تعلم أنه لو دخل سباق حواجز لصرف مائة مليم لتصنع العبط والغشومية وتعثر بكل حاجز وجاء ترتيبه الأول من ناحية الذيل، ولكنه شأن أغلب البخلاء صاحب كرم جميل إذا كانت العملة التى يجود بها مجرد كلام، ينسيك بطلاوته تقتيره، وهذا هو سر اتصاف البخلاء بالظرف وخفة الدم.

حينما جلست إليه فى القهوة وجدته قد فرغ من قراءة الأخبار الخارجية والداخلية، وبدأ يفلى الإعلانات المبوبة، فطوى الصحيفة والتفت الى وقال بلهجة الحائر المرتبك:

ـ أما حكاية! هل لحقنى الخرف أم اختلطت ذاكرتى أم تشابهت الأيام وكف الزمن عن الجريان أم الحقيقة أن حالنا، قد تغير؟ يحدث لى مرارا هذه الأيام بعد أن أصل إلى بطن الصحيفة أن أعود إلى عنوانها لاقرأ تحته تاريخها وأتثبت من أنها طازجة بنت اليوم، إذ يخيل الى أن كثيرا من الأخبار التى أقرأها فيها قد سبق- أنا متأكد - أن مر على بنصه وفصه فى الصحيفة ذاتها أكثر من مرة من قبل.

قلت له مقلدا بيدبا الفيلسوف: وكيف كان ذلك؟

قال: أنت مبخت، اليك مثلا بخبر منشور اليوم.. خذ اقرأه بنفسك ثم أعطنى عقلك.

قرأت من تحت أصبعه خبرا يقول «يقوم رجال الشرطة هذه الأيام بحملة واسعة النطاق لتطهير العاصمة من الشحاذين، مع توجيه العناية الى الشوارع القريبة من المحطة ومن فنادق السياح، وقد عقد الحكمدار- لهذا الغرض!- مؤتمرا صحفيا.. إلخ إلخ»

قال صديقى ونظرته متشبثة بعينى: بذمتك ألم تقرأ أنت مثل هذا الخبر من قبل أكثر من مرة؟ الجديد فيه راجع إلى البراعة اللغوية وبارك الله فى مترادفات اللغة العربية، فالمسألة هى مرة «تطهير» ومرة «مطاردة» ومرة «إجلاء» ومرة «مقاومة». على كل حال كلها ألفاظ تصلح لوصف المعارك الحربية التى يخرج لها الجنود بالبنادق والخوذ، ينشر هذا الخبر فأصبح لا أجد فى المترو هذا الشحاذ الذى يمد لى حتى تلمس أنفى وسط الزحمة يدأ كأنها خارجة من لوحات بيكاسو، ولا هذا الصبى الذى انقلبت يده هو الآخر إلى خطاف بشع، ومع ذلك تتناول القرش فلا يقع منها، فإذا بلغت وسط العاصمة رأيت لوريات ضخمة تتحلق فيها الشرطه حول أكوام من قمامة البشر فلا أدرى أيهما يصعب على: هؤلاء المساكين أم الجنود أنفسهم، وأقول: كان الله فى عونهم.. ماذا سيفعلون بهم؟ يختفى كأنه فص ملح ذاب هذا القروى الذى يسألنى فى مصر الجديدة أين طريق الهرم، وأحيانا أجده فى الهرم، فيسألنى أين طريق مصر الجديدة. إنه ذو حياء لأنه يكتفى كل مرة بقرش ولايسألك ثمن أبونيه، ثم اغمض عينى وافتحها وأركب المترو فإذا من جديد يد بيكاسو ذاتها فى أنفى، والخطاف ممتد إلى، والرجل لايزال تائها فى مصر الجديدة. اين ذهبوا! كيف عادوا؟ كيف أحتل كل واحد مكانه المرسوم كأنك يابو زيت لا رحت ولاجيت.. والغريب أن خبر الحملة الواسعة النطاق يكون مصحوبا عادة بخبر آخر من متسول يموت عن تركة تبلغ الألوف من الجنيهات، يتلازم الخبران كأنهما على موعد، حتى كدت أشك أن الشرطة هى التى تخترع خبر المتسول المليونير لتضمن مشاركة الجمهور بقلبه فى حملتها، ثم يسحب النسيان ذيله على الحملة والتركة معا.

واستطرد صديقى يقول: لا تغيظنى عودة الشحاذين بقدر ما يغيظنى التعلل بسمعتنا أمام الاجانب فى كل خبر ينشر عن هذه الحملة، فهل لو هاجر الأجانب من بلادنا رضينا لأنفسنا بما لانرضى به لحضراتهم؟

قلت له: وما الحل؟ قال: لابد أن تتغير صيغة هذه البلاغات الحربية وتمتنع ألفاظ المطاردة والمقاومة والتطهير والإجلاء، وتحل محلها ألفاظ مثل «إيواء» و «تشغيل» و«توطين» .. إننا حينئذ نتوقع للشرطة أن تنتصر فى هذه المعركة الرهيبة التى خسرتها كل مرة خاضت فيها غمارها.

وسكت صديقى لحظة ثم قال: وعلى ذكر الأجانب، أنت تعلم أننى جاوزت الخامسة والخمسين، وقد قرأت أخيرا خبراً أؤكد لك أننى قرأته بنصه وفصه قبل أن أبلغ سن العشرين، وقرأته بين العمرين أكثر من مرة، إنه يختفى ويظهر كالنجمة أم ذيل، هو خبر على شكل رسالة واردة لرئيس التحرير من طالب أو عضو بعثة مسافرة لأوربا أو أمريكا يقول إنه نزل لدى أسرة أو دعى لمأدبة فكان أول سؤال تلقاه ممن يحيطون به: لماذا تظل المرأة عندكم محجبة، ولماذا تتزوجون من أربع نساء، ولماذا تركبون الجمال، وماذا تفعلون بالتماسيح التى تملأ نيلكم وتسرح فى شوارعكم؟ ويلطم المواطن الغيور خديه فى رسالته ويناشد أولياء الأمور أن يفعلوا شيئا للتعريف بنهضتنا وإنقاذ سمعتنا، وتقف الرسالة عند هذا الحد إذا كان صاحبها ملولا يجد فى الشكوى تمام لذته، وتزيد أحيانا أنه تطوع للقيام بحملة هى الأخرى واسعة النطاق لدحض هذه المفتريات ويطالب بأن تصله بسرعة نشرات مصورة بكل اللغات وأفلام ثقافية قصيرة، فإذا قرأت هذا الخبر سألت نفسى كل مرة هل رضع هؤلاء الناس مع ألبان أمهاتهم فكرة قائمة ثابتة عن الشرق لاتتغير؟ لماذا تعمى أعينهم عن سفاراتنا ومفوضياتنا وقد أصبحت منتشرة فى بلادهم؟ ويخيل الى أن العلاج الأول هو أن نجمع نسخ كتاب الف ليلة وليلة بكل اللغات ونحرقها، أنه السبب الأكبر فى هذه النكبة ثم أعود للعقل وأتمنى أن نبذل لدى هيئة اليونسكو جهدا متصلا للتوسط لدى أعضائها لتضمين كتب المطالعة فى مدارسهم وصفا صادقا ولو مرة لبلادنا. ثم أرجع فأحكم أن هذا حلم صعب التحقيق، فإلى أن يزول التعصب وتنفتح العيون سيظل هذا الخبر فى صحفنا يتكرر بصيغة واحدة لاتتغير، لا فرق بين الماضى والحاضر والمستقبل القريب:

ومر بنا جرسون يحمل كأسا من خمر لزبون فعلقت بها نظرة صديقى فاذا به يهتف:

خذ خبرا آخر قرأته أكثر من مرة «ضبط رجال مصلحة الإنتاج والرسوم المقررة معملا

لتقطير الخمور خفية، وأسالوا على الأرض محتويات عشرة براميل ملأى بسوائل سامة مغشوشة» .. فإذا كان الصحفى ناشر الخبر نشيطا أو يهوى كتابة القصص القصيرة أضاف أن التقطير كان يتم فى مرحاض منزل قديم من أملاك الأوقاف فى زقاق هيهات أن تجده فى خريطة العاصمة، ولو كانت مرسومة بنسبة واحد إلى واحد، أنه يريد أن يوحى مكان التقطير بوسيلة الغش..

واستمر صديقى بيتسم: أول أثر لهذا الخبر فى نفسى هو الانتقال بذهنى إلى هذه الخمارات الحزينة المتوارية كذوى العاهات فى أحياء القاهرة، ورؤيتى لروادها يحتسون عيانا بيانا- لاخفية فى مرحاض- أنواعا من الخمور يكفى لونها وحده أن تثق بأنها من منقوع البراطيش، ومع ذلك يجدون فيها السعادة والنسيان، فأحكم أن هذا الخبر سيكربهم أشد الكرب، فحرام عندهم أن تراق هذه النعمة على الأرض هدرا، إنهم أصبحوا إذا كان قد بقيت لهم أمنية فهى أن يطلبوا إلى الحكومة أن لا تسمح ببيع خمر إلا إذا كان مغشوشا، ولا فرق بين سم وسم، ولأنهم من ناحية أخرى أصبحوا لايروى ظمأهم إلا الخمر المغشوش. كنت أتمنى أن يكون رجال مصلحة الإنتاج مصحوبين بمندوبين من وزارة الصحة هذا أقل رجاء لأن تمام العدل أن تنفرد وزارة الصحة بمحاربة هذه السموم لتعليق المسئولية برقبتها.

والأثر الثانى لهذا الخبر عندى هو الانتقال بذهنى أيضا إلى هذه الأكوام من المأكولات على عربات اليد وفى المطاعم ، لا فرق بين شعبية وراقية، إنها أذا لم تخضع لرقابة شديدة فهى سموم لاتقل عن هذه الخمور الفاسدة.. فلماذا لا نقرأ خبرا عنها؟ ولا أريد أن أحدثك كيف يباع الخبز واللبن فى معظم الأحيان.

هبط على صديقى صمت حزين ثم خرج منه وهو يقول هامسا: يؤدى بنا الحديث السابق إلى خبر آخر تكاد لا تمر سنة إلا نشر، وفى كل مرة بصيغة واحدة، وهو ينبئنا بضبط عصابة من المجرمين العتاة تجمع الصبيان المتشردين لتدريبهم على النشل والسرقة، وتهتك فوق البيعة أعراضهم. ولايقل عدد هؤلاء الضحايا فى كل مرة عن خمسين أوستين.. إننا نرى هؤلاء الصبية رأى العين ثم نشيح بوجوهنا عنهم.

قلت له: مشكلة هؤلاء الصبية هى صورة أخرى لمشكلة الشحاذين التى بدأت بها حديثك.. ومادمت قد بدأت تكرر نفسك فاسمح لى بالانصراف، كفاية، عن إذنك...

أما المقال الثانى والذى نشره الأهرام بتاريخ ٨ نوفمبر من نفس العام ١٩٦٠ وتحت عنوان « الحساب الختامى لمهرجان الأفلام الروسية» الذى عقد فى تلك الفترة، فقد كتب يحيى حقى يقول:

شهدت القاهرة أخيرا فى مهرجان الأفلام الروسية نخبة من الأفلام القصيرة وسبعة أفلام طويلة منوعة بين فكاهية ودرامية منتجة ما بين ١٩٥٤و١٩٥٩، هى: أصدقاء حقيقيون- أنشودة جندى - ما أغلى الحرية- الصباح الكئيب- طريق الرعد- سيمفونية لننجراد- نجمة الصباح.

وأول سؤال هو: ماهى صورة المجتمع الذى قصدت هذه الأفلام رسمه لنا؟ الجواب سهل لأن كلامها واضح، إنه مجتمع لاتزال تلح عليه ذكريات الثورة وويلات الحروب المدمرة، وشعب يجاهد حتى من قبل الثورة فى سبيل حريته، ويعمل وسط الحطام والخراب وتشتت الأهل والخلان وبين أحزان الترمل واليتم، وفى قلبه تصميم على الثبات وبناء مستقبل أفضل، يخوض أعنف المعارك، لم يكن من أيسرها تكوين فرقة موسيقية من جنود وضباط تركوا جبهة القتال وواجهوا الموت فى الطريق (وفيهم من استشهد)، لتعزف فى مدينة لننجراد فى عين اليوم الذى حدده هتلر لاحتلالها سيمفونية الفها واحد من أبناء الشعب ليمجد جهاد هذه المدينة. ما أجمل كبرياء قائد الفرقة وهو يجمع من الهلاهيل وفتات البطاطس بذلة فراك وقميصا منشيا ليقول لهتلر « أنا لا أتضعضع ولن انهزم».

لذلك لم نشهد فى هذه الأفلام مشاكل فردية منعزلة عن جهاد الشعب، كرجل يقيم الدنيا ويقعدها لأنه لم يظفر بامرأة يتعشقها، بل المرأة فى هذا المجتمع تعتز بإنسانيتها قبل أن تتباهى بأنوثتها وتقف والرجل على قدم المساواة فى الجهاد وحمل العبء، وكان من اليسير أن تلحظ أن الأفلام الروسية لم تحاول قط أن تستغل الاستثارة الجنسية، فلم نر

عريا ولا تقصعا ولا هز أرداف ولا كلاما خليعا بالعين والحاجب، ولم نر - والمشهد يمثل لنا أرق لواعج الحب - قبلة واحدة على الفم، الا فى فيلم جرت حوادثه فى جنوب أفريقيا.. أى خارج حدود روسيا!

ومع ذلك فالفيلم الروسى واقعى، لم ينكر أن من بين النساء من خانت زوجها الغائب فى الحرب، ولكنه لايصور الخيانة على أنها نزوة إرادية تأتى بعد مطاردة وإغراء، بل سقطة شبه اضطرارية، الذنب فيها أولا وآخرا للحرب ونكباتها.

ملاحظات عامة

من البين أن الأفلام كلها- الا واحدا- مصروف عليها ببذخ، مشاهد تجرى فى أسواق، ومعارك هائلة لاتستغرق على الشاشة سوى دقائق قليلة تحشد لها الحشود وتلقى التفاصيل فيها أتم عناية، فلا تشهد أثرا للكلفتة أو الاستعانة بالحيل التصويرية لتضخيم المجاميع، أو تقليدا سخيفا آليا لقواعد جامدة باخت من كثرة التكرار تجرى عليها السينما الأمريكية فى تصوير دقائق المعارك، من نفوذ السيف من الصدر حتى يخرج أمامك من الظهر والدحرجة البهلوانية بعد السقوط عن الجواد، وقدم الفيل مثلا (وهى من الكاوتش) تسحق رأس رجل.

ولا يفوت المشاهد أن يلحظ أن الفيلم الروسى يجود طالما ظل داخل بلاده، وأنه لا يزال يتهيب إلى اليوم تقديم قصص تدور حوادثها فى بلاد أخرى، وإذا فعل لم يفلح فى إقناعنا، بل يرتبك ويلوص، وفى فيلم «طريق الرعد» الذى تجرى حوادثه فى جنوب أفريقيا سطحية مبتذلة وفقر مدقع فى الديكور، وأحسسنا ونحن فى قرية أفريقية فى الهواء الطلق أننا نختنق داخل الاستوديو.

الإخراج

الأفلام الأمريكية التى اعتادها أهلنا وأقاموا عليها أذواقهم تعتمد على سرعة الحركة إلى حد العفرتة، والعناية بالحادثة وتتابعها ولو بالتضحية بشخصية الممثل الفردية، حتى أصبحت فى أغلب الأحوال مضغوطة داخل إطار تقليدى جامد، أما الفيلم الروسى- شأنه فى ذلك شأن أغلب المدارس الأوربية- فإنه يتمهل فى السرد ويطيل فى الحوار ويساوى فى الأهمية بين الحوادث والشخصيات، لذلك لا مفر للمشاهد عندنا من أن

يتهمه بالبطء وميل الحوار إلى النغمة الخطابية، وكان من أثر اهتمامه بالشخصيات أن أصبح من وسائله المفضلة في التعبير الاستعانة كثيرا بملامح الوجه وتثبيت النظرة أو تردد مقلة العين ما بين الأذن والأنف، ولكن هذه الزغرة الثابتة أو الحائرة تستجلب التهمة بأنها طريقة بدائية فى التعبير فى مفهوم الفن السينمائى كما نعرفه، ومع ذلك فالملاحظ أن أفلام المهرجان لم تلجأ الى الصورة المكبرة للوجه.

التصوير

لايملك المشاهد إلا إبداء إعجابه البالغ بجمال الألوان ودقة التصوير ووضوحه، بل إبداء دهشته لقدرة الكاميرا على الحركة وتتبع سير الممثلين مشيا أو عدوا فوق ظهور الخيل المنطلقة لمسافات طويلة قلما نراها فى أفلام أخرى.. وتترفع المدرسة الروسية عن اثبات براعتها باجتياز امتحانات عسيرة تدس- كما يحدث فى الأفلام الأمريكية ـ لمجرد إثبات هذه البراعة لا لخدمة الفيلم، كإظهار المشاهد فى مرآة السيارة الصغيرة الأمامية.

وهذه العناية بالتصوير تصاحبها عناية مماثلة بالموسيقى التصويرية والأصوات الإضافية، فقد بلغت فيهما أفلام المهرجان شأوا بعيدا.

التمثيل

يميل فى أحيان كثيرة بسبب البطء الى النغمة المسرحية، ولعلى لا أخطىء إذا قلت إن أدوار النساء قد تغلبت فى المهرجان على أدوار الرجال، وقد لاحظنا تقدما محسوسا فى مستوى جمال الممثلات كما رسمته هوليود وباريس ولندن، ولعل السينما الروسية جعلت هذا التقدم إحدى وسائلها فى غزو الأسواق الإجنبية.

لايتسع المجال هنا لاستعراض كل الأفلام بالتفصيل، فنقول إجمالا إنها تراوحت تراوحاً شديدا بين قمة السلم وأولى درجاته، وقد اسرنا فيلم «أنشودة الجندى» إخراج جريجورى تشودهرى ـ وهو درة المهرجان ـ فهو فيلم إنسانى رقيق يمتاز بالقصد الجميل واللمسات البارعة وعمق مأساته وبساطتها فى آن واحد. انه يذكرنا بفيلم « البجعة الطائرة» فهما من مدرسة واحدة.

وفى أول درجات السلم فيلم « طريق الرعد» الذى يعالج مشكلة الملونين فى جنوب

أفريقيا، فهو بدائى تافه فقير أشد الفقر فى كافة عناصره، وكنا نود لأكثر من سبب ألا يضمه المهرجان وأن يعفينا إخواننا الروس الكرام من تجرع سخافته وحماقته.

وقد عجزنا كل العجز عن تتبع فيلم «الصباح الكئيب»، ولعل السبب أنه الحلقة الثالثة لقصة « الشقيقتين» التى رأينا من قبل فيلمها الأول ولم نر الثانى بعد، وكنت أفضل أن يقدم المهرجان القصة كاملة ولو فى ثلاثة أيام.

وقد اختلف الرأى فى فيلم « ما أغلى الحرية» واستهان به الكثيرون، ولكننى أشهد أننى لم أر فى غيره مثل هذه الأنشودة الرقيقة التى تمجد عاطفة الحب، وممثلة هذا الفيلم هى صاحبة أقدر وجه على التعبير.

• الأفلام القصيرة

تضمنت الأفلام القصيرة أفلاما رائعة عن حياة الدب الأبيض وطائر البطريق وبناء أول سفينة ذرية لتحطيم الثلوج، وإلى جانبها أفلام أخرى إخبارية عن حياة المسلمين فى أنحاء روسيا لا ترقى إلى هذا المستوى الرفيع، وكنا نود أن يزداد نصيب أفلام الصور المتحركة فى المهرجان، فللروس فى هذا الفن قدم راسخة فإن الذى عرض منها علينا لايعطى صورة صادقة عن هذا الفن عندهم.

هذا وقد لقى المهرجان من القائمين به أكبر عناية وكان نجاحه ملحوظا، زاد فيه قدوم بعثة روسية من الممثلات والممثلين نرجو لهم أطيب إقامة بيننا.. ولايسعنا إلا أن نقدم أجزل الشكر للقائمين على تنظيم هذا المهرجان وللسلطات الروسية المختصة.. ونتمنى أن تكثر أمثال هذه المهرجانات حتى نرى أفلام دول أخرى مثل السويد، وإذا قيل إن إفلامها تجنح الى الإباحية فإننا مع ذلك نستطيع أن نختار منها ما يوافق أوضاعنا.

آخـر أحلامه!

للكلام عن يحيى حقى مذاق مختلف باختلاف وجوه إبداعه وموهبته.. فهو الفنان المبدع والأديب القاص والكاتب والناقد الأدبى أيضا.. وفوق هذا كله فهو مترجم له إسهامات فى الترجمة لايمكن إنكارها، نذكر منها: مسرحية دكتور كنوك لجول رومان، والعصفور الأزرق لموريس مترلنك، ومن الروايات نذكر الأب الضليل لإديث سوندرز، والبلطة ليمخائيل سادوفيانو الرومانى، ولاعب الشطرنج لستيفان زفايج، وطونيو كروجر لتوماس مان ومن الأدب الوصفى كتاب القاهرة لديزموند ستيوارت. لهذا سنقصر كلامنا هنا عنه كمترجم.

عن اهتمامه بالترجمة وجهوده فيها يقول يحيى حقى: « اهتمامى باللغة العربية هو الذى يجعلنى أحب جدا أن اشتغل بالترجمة لأنها هى التى تجبرنى على تطويع اللغة العربية للاستجابة لمطالب العصر الحديث».

والترجمة فى رأى يحيى حقى وبنص كلامه هى: «عمل شاق ومرهق جدا.. وقد حدثت فى مصر تجربة رائعة لم يلتفت إليها أحد وهى صدور مجلة المختار فى عهدها الأول، حين كان يتولى سكرتارية تحريرها محمود شاكر، فقد استطاعت أن تجد التعبير العربى للحياة الأمريكية المعاصرة، وكان ذلك عملا عجيبا وفريدا لم يحظ بأى اهتمام مع الأسف».

أما عن نفسه ومشواره مع الترجمة فيقول:

«وكنت أسهم بالترجمة فيها - يقصد مجلة المختار - إلى جوار أعلام كبار مثل فؤاد صروف رئيس التحرير والمازنى وعلى حسنى.. فى حين كان محمود شاكر يراجع كل الترجمات».

هذا إذن هو يحيى حقى الأديب والمترجم والفنان، وهذا هو الفن كما يراه.. ويقول: «هذه هى أهم سمات العمل الفنى: الفقرات لابد أن يكون لها نبوغها وعبقريتها استقلالا ولكنها تذوب فى الكل حتى لاتنتبه إليها، ومع ذلك إذا حذفت واحدة منها انهار البناء أجمعه».. وسط هذا الاتقاد تنصهر الألفاظ وتتحول اللغة من العموم إلى الخصوص وتخاطبك بلسانين:

الإفصاح والإيحاء

المباشرة والكناية

الحق والإستعارة

بل يتحقق لها المستحيل.. الجمع بين نقيضين: طابع الألف والحرية، كأن كل الناس هكذا يتكلمون.. وطابع الرق والاستعباد لأنك تعدلها أو تشوهها لكى تفى بغرض محدد نفعى مستبد فى سياق لا يطابق الواقع ويزعم أنه الواقع»

وأسمعه فى مقدمة رواية « لاعب الشطرنج» تأليف ستيفان زفايج يقول:

«الفن لغة تنسيك صراحتها أنها شفرة سحرية ترمز- كما فى الأسطورة- إلى الباطن من تحت الظاهر وتوحد الكائنات تحت ستار من الشتات.. هكذا لغة الفن» (دار الكتاب الجديد ـ العدد ٣٢).

وهذه أيضا بعض ملاحظاته فى ترجماته كما سجلها فى تصديره لكتاب «القاهرة» ترجمته وتأليف ديزموند ستيوارت: «وضع الأجانب مصطلحات العمارة ونحن لانزال فى حيرة لانستقر على مصطلح نستخدمه فى التأليف أو الترجمة» (مارس ٩٦).

ويعابثنا يحيى حقى بخفة ظله المعروفة فيقول فى مقدمته لترجمة رواية «البلطة» تأليف ميخائيل سادوفيانو «وأرجو أن تحتمل تحدث الرعاة من أهل الجبل فى رومانيا بالعربية الفصحى، فليست العبرة إلا فى ترجمة الفكر.. وما اللغة إلا طريق يؤدى إليه. فإذا التزمت الأمانة والصدق زال الحرج الناشىء من اختلاف الخصائص بين لغة وأخرى» (دار الكتاب الجديد العدد- ٣١).

واستمع إليه فى مقدمته لرواية طونيو كروجر تأليف توماس مان كيف يصف الترجمة.. يقول: «وأنت تعلم أن لا فن ينقل عن الواقع بأمانة.. لابد من الخيانة.. الأمانة الوحيدة المقبولة هى أمانة الفنان للصدق الفنى، وهو شىء مختلف أشد الأختلاف عن الصدق الأخلاقى» :(دار الكتاب الجديدة-- العدد ٣٢).

والمؤلم أن يحيى حقى كان يحلم بمجلة للترجمة وأخرى تكون مجلة للمجلات العربية.. وقد توفى ومازال حلمه صوتا بلاصدى!!

فهل آن الأوان أن يتحقق حلم يحيى حقى بعد رحيله عن دنيانا، فيصدر المجلس الأعلى للثقافة توصية أو قراراً بإصدار المجلتين.. ليس تحقيقا لحلم الأديب الراحل.. ولكن تحقيقا لحلم ملايين المثقفين فى مصر والعالم العربى.. وسدا لفراغ كبير يعانيه الوسط الثقافى الآن.. وبشدة؟!

المحتويات

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ٣٧٠٢ /٢٠٠٢

I . S . B . N 977 - 01 - 7722 - 9